القبيلة والدولة والشيخ المرابط
الأوضاع العامة في إقليم برقة منذ احتلاله من قبل القوات العثمانية في منتصف القرن السابع عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر

الأستاذ المساعد الدكتور جاسم محمد شطب
كلية التربية للعلوم الإنسانية – جامعة كربلاء

مختصر البحث

يدور هذا البحث حول الأوضاع العامة في برقة في العصور الحديثة حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وبادئ ذي بدئ لابد للباحث التنويه عن اصل التسمية وجغرافية الإقليم الطبيعية باختصار , وتأثير ذلك على الأوضاع الاقتصادية لاسيما الزراعة والرعي وارتباطهما بتجارة السلع الزراعية الرعوية ثم تجارة الصحراء والصناعة البيتية، ثم الانتقال إلى الجوانب الاجتماعية في البوادي كالتشكيلات القبلية؛ أصولها وتحالفاتها وهجراتها واقتصادها ، والتجمعات المدنية في بنغازي ودرنة والجغبوب .ثم يتناول الباحث باختصار شديد الجانب الديني والدور الذي كان يقوم به رجل الدين(المرابط). ثم يأتي دور الجوانب السياسية ويتم التركيز فيها على الحلقة الأخيرة من الصراع داخل الأسرة القرمانلية ، وأفول نجمها .

Summary

This research is around the general conditions of Barqa since the Modern ages until the mid of nineteenth century At the beginning ,however ,to say something about the origin of the name of Barqa and its geography in brief and the influence of this on economic circumstances, the cultivation and greasing in particular the relation of these to crafts to the trade in pastoral and agricultural ,goods then to commerce through Sahara and domestic industry .The research will also shed lights and social side of wilderness as tribal formulations their origins, alliances, immigration, economies and the civil gatherings in Benghazi Darna and Jaghboob will include in summary, the religious side and the role played by the religious mam (Al Murabit),in addition the political situations will be studied of the last series of conflict in side of the Qaramanlic dynasty, and its declination.

مقـــدمة البحث

على الرغم من امتداد إقليم برقة بموازاة ساحل البحر المتوسط الجنوبي بمسافة تقارب الألف كيلومتر ، وهو بهذا الامتداد أصبح على قدر كبير من الأهمية الاستراتيجية , إلا أنه لم يلق من الاهتمام ما يتناسب أو يوازي تلك الأهمية ، فقد احتله العثمانيون بعد مرور أكثر من قرن على احتلال الجزائر أو مصر أو تونس , فضلاً عن ذلك فأنه يقع بين إقليمين عظيمين هما وادي النيل من ناحية الشرق وطرابلس الغرب وتونس من ناحية الغرب وهو بمناخه وسكانه وقبائله واقتصاده وامتداداته الجغرافية يمثل أصدق تمثيل الهوية العربية الرعوية الصحراوية غير المنضبطة, بل وفي حالات كثير أصبح يشكل داعم راسخ وعميق لعروبة مصر وطرابلس , لأنه مبعث لعدد كبير من القبائل الموغلة في العروبة (إذا جاز لي القول)إلى وادي النيل أو إلى أقاليم الغرب .

وعلى الرغم من هذه الامتيازات إلا ان الإدارة العثمانية نظرت إلى الإقليم على انه مصدر للضرائب وحسب ، فلم تكن هناك إدارة كفؤة أو خدمات صحية أو تعليمية بل أن الإقليم كان مجالاً للتخلص من شغب أمراء العائلة القرمانلية المشاكسين أو الأكثر مشاكسة . بيد ان هذه المميزات درست بعناية من قبل السيد السنوسي الكبير فقد جعل من الإقليم موئلاً للحركة السنوسية ، التي انتشرت على مدى الإقليم بكاملة قبل أن تنتشر إلى الأقاليم الأخرى. لذا أرى أن الإقليم جدير بالدراسة بوجود مادة مصدرية كافية للبحث في هذا الموضوع ، والله هو ولي التوفيق .

أصل تسمية إقليم برقة وتضاريسه

برقة بفتح الباء والقاف وسكون الراء في الوسط , أسم عرفت به مدينة المرج الحالية التي تقع في وسط الإقليم من ناحية الشمال المطل على البحر المتوسط , وأصبحت فيما بعد تعني الإقليم بكامله . وقد أثارت هذه الكلمة بعض الجدل في أصلها اللغوي , فهناك من ينسبها إلى اللغة اليونانية أو إلى اللغة الفينيقية أو إلى الليبية القديمة , ولم ينته الجدل حولها إلى رأي راجح أو مقبول , إذ يرى بعض الباحثين أن التسمية قديمة الأصل قدم ميثولوجيا المنطقة فهي على اسم شخص يسمى "بركا". ويرجع البعض الآخر التسمية إلى"برقة"؛ العائلة التي ينتمي إليها هانيبال 248– 184ق. م. البطل الفينيقي الأسطوري قائد قرطاجة في صراعها ضد الرومان في حدود القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد[1]. وذهب فريق ثالث إلى أن التسمية تعود إلى ما قبل 3200ق.م. تضمنت الإشارة إلى مدينتين إحداهما "بر" والأخرى "كا" , وقد أشار الكاتب الميثولوجي الليبي محمد مصطفى بازاما في بحثه عن أصل تسمية برقة إلى أن بعض شيوخ واحة أوجلة أشاروا إلى وجود أثر لقصر قديم , كان يعرف عند السكان المحليين بقصر "قاه" وهي

ملكة كانت تحكم المنطقة , أما كلمة " بر" فتعني بالمصرية القديمة " بلد أو مدينة , وعند إضافة الكلمتين إلى بعضهما فتعني أرض أو" بلد قاه" وصارت مع مرور الوقت تكتب وتنطق "برقة"[2] .

ولما دخلها العرب المسلمون بعد الفتح العربي الإسلامي أسبغوا عليها معتقداتهم ومناخهم الفكري حتى ذهب البعض إلى القول أن أصل التسمية عربية في أصلها ودلالتها وتلائمها مع المناخ الصحراوي، ولعل الرحالة العياشي (ت1681م) كان أوضح من وصف تقسيمات المنطقة "وأرض برقة منقسمة هناك في عرف أهلها إلى أقسام أولها من حسان إلى ما وراء الأحمر يسمى سرت , ومن هناك إلى سلوق يسمى برقة الحمراء , ومنها إلى التميمي يسمى الجبل الأخضر , ومنه إلى العقبة الكبيرة ويسمى البطنان "[3] . وذكرها محمد بن الطيب الفاسي في رحلته إلى الأراضي المقدسة في سنة 1727–1728م بنفس التقسيم الذي ذكره العياشي من قبل [4] . وقال أيضاً " برقة قديمة من بناء الروم , وكانت عندهم أنطابلس ، ومعناها بلغتهم خمس مدن . . . وبرقة الآن عند الناس اسم أرض لا اسم مدينة [،]والمغاربة يسمون بها ما ردت عين قيان من غرب جدابية[كذا] إلى الإسكندرية ،وذلك نحو من أربعين مرحلة "[5].

وعلى أية حال فأن إقليم برقة يمتد جغرافيا بموازاة البحر المتوسط بين خطي طول 20 و 30شرقاً لمسافة 1000كم من عقبة السلوم على الحدود المصرية الليبية شرقاً إلى خليج سدرة الواقع بعد مقطاع الكبريت غرباً، ومن البحر المتوسط شمالاً إلى جبال تبستي جنوباً . ويمتد السهل الساحلي المحصور بين شاطئ البحر وحافات الهضبة بموازاة البحر من خليج سرت إلى خليج البمبة ويختلف اتساعه من مكان لآخر ، فهو يبدأ متسعاً في الغرب حيث يبلغ أقصى اتساع له بين توكرة وبنغازي , ثم يضيق كلما اتجهنا شرقاً حتى يصل إلى بضعة مئات من الأمتار عند رأس الهلال . ويشكل الجبل الأخضر الواقع ما يلي السهل الساحلي هضبة متوسطة الارتفاع تأخذ شكل المدرج في مواجهة الشمال والشمال الغربي ، وترتفع حافاتها قليلاً عند ضواحي مدينة المرج عن بقية المدرج وبذلك يأخذ السطح شكل حوض مغلق يبلغ طوله 30 كم، وعرضه حوالي 15 كم فقط , وتشكل هذه التضاريس بمجموعها الجبل الأخضر الذي تدل تسميته على الارتفاع , بيد أن هذا الارتفاع لا يتعدى 880 م عند سيدي الحمري في سلنطة . أما ما تبقى من الجبل الأخضر في الدرجة الثانية فهو مجموعة من الهضاب لا يزيد أقصى ارتفاع لها عن 600م فوق مستوى سطح البحر عند مدينة شحَات . وقد تقطعت هضاب الجبل الأخضر بواسطة مجموعة من الأودية التي تنحدر من الحافة الشمالية صوب البحر وهى أودية عميقة متسعة لها جوانب شديدة الانحدار، مثل أودية البطوم والاثرون ومرقص والمهبول ودرنه والقلعة والمعلق وغيرها. وقد أدت هذه الأودية إلى صعوبة الانتقال بين الشرق والغرب. وهي تنتظم في نوعين رئيسين من أنماط التصريف المائي إذا ما استثنينا الأنواع الثانوية , وهما النوع الشجري المعدل وهو متطور عادة في الأحواض الكبيرة مثل حوض وادي الكوف، أما النوع الثاني فهو النوع المتوازي ، ويعكس هذا التصريف تأثير الخصائص الصخرية والتركيبية. ويمكن أن تتحول تلك الأودية إلى خزانات مائية للاستفادة من مياه الأمطار لأغراض الزراعة والري. ويمكن القول أن الأمطار على الوديان التي تتصل بالبحر قليلة الفائدة بسبب جريانها السريع مما يجعل تربتها تنجرف نحو البحر ، مقارنة بالوديان التي لا منفذ لها فتكون أحواض داخلية ذات تربة غنية صالحة للزراعة مثل حوض المرج آنف الذكر [6] .

وتشكل هضبة ماريماريكا[*] الجزء الشرقي من مرتفعات إقليم برقة ويبلغ أقصى ارتفاع لها 200 متراً فوق سطح البحر ، وهي هضبة ذات موارد طبيعية محدودة ، ويقل التنوع في مظاهر سطحها بعكس ما هو عليه الحال في الجبل الأخضر، وتنحدر تدريجياً نحو الداخل ، بينما يكون الانحدار شديداً باتجاه البحر أحياناً ، حيث تطل على البحر مباشرةً كما هو الحال عند طبرق والسلوم . وعرف هذا الإقليم قديماً باسم (سيرنايكا – برقة)وبهذه التسمية يعرف في المصادر الغربية , ويمتد جنوباً حتى يلتحم بالصحراء الكبرى الأفريقية [7]. لذا بهذا التوصيف تنحدر الهضبة انحدارا تدريجياً من الجنوب إلى الشمال باتجاه واحات الجغبوب وجالو وأوجلة وإجخرة ومرادة والكفرة في حدودها وهي بمجموعها تُكَون سلسلة من المنخفضات الداخلية , التي يغلب عليها المناخ الصحراوي ، بيد إنها استغلت من قبل السكان المحليين في زراعة النخيل وبعض المحاصيل الأخرى اعتماداً منهم على المياه الجوفية لاسيما في فصل الصيف ، وتوجد بها بعض الأحواض المائية المالحة الضحلة الناتجة عن تجمع المياه الجوفية على سطح الأرض [8].

ويتميز السهل الساحلي بخصائص جغرافية طبيعية إذ اعترته فجوات وخلجان وامتدادات مائية داخل اليابسة بفعل عوامل سقوط الأمطار وحركة الأمواج وما رافقها من التعرية في الأزمنة السحيقة ، وليست بفعل حركات تكتونية في باطن التربة ، فصارت مناسبة لقيام الموانئ عند مصبات الأودية القصيرة السريعة الجريان كميناء بنغازي ودرنة وسوسة وطلميثة وطبرق , الذي يعد من أنسب الموانئ الطبيعية على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط بين الإسكندرية والمهدية في تونس[9]. كما تميز السهل الساحلي بخصائص طبيعية أخرى وبشرية ساعدت على قيام الأنشطة الاقتصادية الزراعية والرعوية فيه عبر الفترات التاريخية المختلفة . وكان عامل الارتفاع عن مستوى سطح البحر والقرب والبعد عنه والموقع على دوائر العرض، أسباب في تحديد كمية الأمطار الساقطة على الإقليم ، وبالتفاعل مع أصناف التربة ، فقد أسهمت في تحديد الأنماط الزراعية والرعوية , حيث يقع الإقليم برمته ضمن الأقاليم المدارية الحارة بين دائرتي عرض 18,5 و33شمالاً , إذ تستلم المناطق الأكثر ارتفاعاً معدلات أكبر من التساقط تتراوح بين300 -700 ملم سنوياً لاسيما في أشهر الشتاء , حيث تنخفض درجات الحرارة وتنخفض معها وتائر التبخر مما يجعل التساقط أكثر جدوى وتأثيراً , وتنخفض معدلات التساقط كلماً تقدمنا إلى الدواخل حيث يسود المناخ الصحراوي القاري صيفاً وشتاءً ، مع ملاحظة أن التيارات الهوائية القادمة من البحر المتوسط ، التي تحمل معها خصائص البحر المناخية صيفاً وشتاءً ، أسهمت في تلطيف التطرف المناخي الصحراوي , علماً بأن التأثيرات البحرية لا تتعدى 10كم إلى الدواخل [10] .

أنماط النشاط البشري في إقليم برقة وعلاقات الانتاج فيه

تتنوع التربة في إقليم برقة تنوعاً واضحاً حيث تسود التربة الصلصالية الضاربة إلى الحمرة لارتفاع نسبة أكاسيد الحديد في أجزائها في جهات الجبل الأخضر , فيما تسود التربة الداكنة في جهات أخرى منه, تخالطها على العموم رمال ناعمة ناتجة عن التجوية الكيميائية للصخور الجيرية, فجعلت منها تربة مسامية جيدة الصرف ذات قابلية عالية للاحتفاظ بالرطوبة , لذا فهي مناسبة تماماً لموسمية الأمطار والنشاط الزراعي والرعوي , فهي كما وصفها محمد عثمان الحشائشي بأنها " من أخصب أرض الله" [11] . وتعم مناطق السهل الساحلي والجبل الأخضر سلسلة من الأحواض مثل حوض المرج والأبيار والفتايح والرجمة ,وهي ذات تصريف داخلي وتمتد بموازاة الساحل في هضبة البطنان بين درنة والبردية على الساحل الشمالي لبرقة على مسافة 300كم, حيث يتضاءل النبات الطبيعي تدريجيا من الغابات المتوسطة إلى أحراش متناثرة ثم إلى حياة عشبية تنمو عقب سقوط الأمطار في الخريف والشتاء وتكون ملائمة للرعي في فصل الربيع وبداية الصيف على امتداد 80 كم من الساحل في العمق [12] .

يعتمد النشاط الزراعي في إقليم برقة اعتماداً كاملاً على مياه الأمطار التي تسقط على الإقليم في شهور الخريف لاسيما الشتاء والربيع . بيد أن هذه الأمطار غير كافية لتكون مجاري سطحية , إلا بعض الجداول القصيرة السريعة الجريان التي تصب في البحر عقب سقوط الأمطار مثل وادي درنة فتكون فائدتها محدودة حيث تفيض في وقت توفر مياه الأمطار, أما في بقية أيام السنة فتغذيها مياه العيون التي ساعدت غزارة الأمطار في بعض السنين و مسامية التربة وتموجها على نشوئها ، فتكونت الأنهار الباطنية التي تسير نحو البحر لتصب فيه. وتقل الفائدة من الأمطار الساقطة بسبب درجة التبخر العالية ، لاسيما في فصلي الخريف والربيع وفي الدواخل الصحراوية , مما يقلل أهمية التساقط على النشاط البشري في الإقليم [13]. كما يعتمد أيضاً على قدرة الإنسان على تخزين المياه وإقامة الأحباس في الأودية النافذة وحفر الصهاريج لجمع المياه في فترات التساقط ، كما تعتمد على قدرة الإنسان على الاستفادة من المياه الجوفية التي على الأغلب لا تكون بعيدة عن السطح , ومن البديهي تماماً أن تتأثر هذه الآبار في دورات الجفاف التي تضرب الإقليم بشكل دوري , فأنها تجف أيضاً بعد سنتين أو ثلاث سنوات من الجفاف المتواصل[14] .

أعطت العوامل الطبيعية الممثلة بالتربة والمناخ إقليم برقة أهمية كبيرة في المجال الزراعي والحرف المرتبطة به كالرعي والتجارة والصناعة البيتية , ومن المفيد القول أن الدولة العثمانية المالكة الشرعية أو الاسمية لكل الأراضي في الإقليم، قامت على أسس اقتصادية زراعية ريعية بالدرجة الأولى , وشكلت الزراعة الدعامة الرئيسية للاقتصاد وحجر الزاوية في الإقطاع العسكري الذي قامت على أساسه الدولة , وقد تأثرت الملكيات(الحيازات) الزراعية في الإقليم وطرق استغلالها بالعوامل الطبيعية المشار إليها ،مما جعل النمط السائد فيه هو نمط الملكية الجماعية للأراضي الزراعية والرعوية من قبل القبائل، على حساب نمط الملكية الخاصة الذي بقي خلال القرن التاسع عشر لا يتناسب مع التحولات الاقتصادية والاجتماعية في العالم, لاسيما في الدولة العثمانية التي كانت تسير سيراً حثيثاً نحو الارتباط باقتصاديات السوق والتخلص من تبعة المشاعية البدائية أو الاقتصاد الإقطاعي في الأناضول أو بعض جهات أوربا الشرقية ,(مع بقاء علاقات الإنتاج علاقات إقطاعية)، لذا أبقت على النظم البالية في هذا القطاع مثل نظام الالتزام المتخلف وغير الكفوء ، الذي كان عند العمل به حلقة تطورية إلى الأمام , طالما كان يؤمن لها استمراراً ضريبياً عشرياً على المدى الطويل [15] .

وكان توفر المياه وغزارة الأمطار والقرب من التجمعات السكنية عوامل مهمة في تحديد أثمان الأراضي في القرن التاسع عندما أصبحت الأرض سلعة قابلة للتبادل , فقد ذكر محمد عثمان الحشائشي تسعيرة الأراضي بقوله "كلما ابتعدت بمقدار خمسين أو ستين كيلومتراً فأن سعر الألف هكتار لا يتجاوز خمسة آلاف فرنك , وكلما بعدت عن البلد بمسافة أكثر من سبعين كيلو متر انعدم بيعها وشرائها "[16]. كما اعتمد تقسيم الأرض بين القبائل التي كانت تقطن برقة على هذه العوامل أيضاً , فقد قسمت تلك الأراضي على شكل أشرطة متعامدة على الشواطئ باتجاه الدواخل , بحيث يضمن لكل قبيلة جزءً من السهل الساحلي والتلال التي تليه وصولاً إلى الصحراء , مما يضمن لكل قبيلة تعدد الأنشطة الزراعية أو الرعوية أو السيطرة على طرق التجارة بتدرج نسب التساقط من مكان لآخر , وهو ما عرف بنظام "اللهدة"[17] . ولم تعترض السلطات المحلية أو العثمانية على تلك التقسيمات التي من المرجح أنها تمت بموافقتها أو بعلمها، وساعدت أعراف القبائل وتحالفاتها على ديمومة تلك التقسيمات بالرغم من عدم تدوينها في السجلات الرسمية للدولة ، بسبب الملكية المشاعية لتلك الأراضي من قبل رجال القبائل واشتراكهم في الدفاع عنها ، ومسؤوليتهم الجماعية بدفع الضرائب والأعشار وفروض الدولة المختلفة عنها . إلا أن ذلك لم يمنع من قيام المنازعات بين تلك القبائل للسيطرة على الأراضي الأكثر خصباً أو مياهاً , لاسيما عندما تشعر القبائل الكبيرة أنها لم تحصل على ما يتلاءم مع حجمها وشدة بأسها من الأراضي الخصبة , وغالباً ما يكون الانتصار والسيطرة للقبائل الأشد بأساً والأكثر مقاتلة مما أدى إلى سلسلة من التحالفات بين القبائل الأضعف ضد القبائل الكبيرة . في حين بقيت الأراضي الأقل خصباً ومياهاً مشاعاً بينها , ولم تعترض القبائل التي تقع تلك الأراضي في أنطقة نصيبها على النشاط الزراعي للقبائل الأخرى حراثة أو رعياً [18] .

أما في أراضي الواحات التي شهدت نشاطاً زراعيا واضحاً من قبل الأهالي بسبب طبيعتها المتفردة لوجود المياه وسط أشد أرض الله قحولة على تربة مناسبة , مما حتم نشاطا زراعيا يعتمد اعتماداً تاماً على زراعة النخيل وجني التمور , وهو الغلة الرئيسية في هذه الواحات ، وكان معدل ما تغله النخلة الواحدة من التمر في برقة من ضعف إلى ضعفين ما تنتجه في فزان أو طرابلس . وتنتج النخيل أيضاً مادة اللاقبي وهو نسغ النخيل الحلو المذاق الذي يتحول بمرور الوقت إلى مادة كحولية, فتحولت هذه المادة إلى مبرر للسلطات العثمانية إلى زيادة الضرائب على النخيل التي تستخرج منها إلى 120درهماً سنوياً على النخلة الواحدة. فضلاً عن بعض المحاصيل الأخرى , التي تنتج في حيازات صغيرة نسبياً , مما أعطى المزارعين مرونة أكبر في كسب أرزاقهم ، ولما كانت هذه الواحات ممراً مهماً لتجارة الصحراء ومراكز مهمة للتبادل التجاري أو التزود بالماء , فقد أصبح من السهولة جلب أعداد كبيرة من الأرقاء من أجل العمل الزراعي على وجه التحديد قبل التخلص منهم بالبيع , ولما كانت تلك الواحات قصية

في الصحراء فهي بعيدة عن مناطق النفوذ الحكومية أو المراقبة الأجنبية وبعيدة أيضاً عن تعسف جباة الضرائب , مما أعطاها أيضاً طابعاً من الهدوء والاستقرار[19].

وتحكمت الدورة المناخية التي كانت تستمر لمدة حوالي عشر سنوات في إنتاج الحبوب وتجارتها , وفيها تنتج الحبوب بكميات كبيرة تفيض عن الحاجة المحلية في السنوات الأربع الأولى , فيصدر المحصول الزائد إلى خارج برقة , أو يخزن توقعاً لسنوات جافة ثم تأتي أربع سنوات أخرى يمكن فيها ما يسد حاجة السكان , ويضاف إلى المخزون أو يصدر نسبة ضئيلة من المحصول ثم تأتي سنتان أخريان أو أكثر يستهلك فيهما المخزون من المحصول ويعمد إلى سد النقص باستيراد كميات محددة من الحبوب أو الدقيق , ومن الجدير بالذكر أن الشعير والقمح هما الغلتان الرئيسيتان اللتان تزرعان في برقة ويصدر الفائض منها إلى خارج الإقليم [20] .

ومن المناسب أن نذكر هنا وصف أحد الرحالة لأوضاع الإقليم في منتصف القرن السادس عشر بقوله " تبدأ هذه الصحراء من أقصى حدود مصراتة ، وتمتد شرقاً حتى مشارف الإسكندرية ، وهي مكان غير مسر ، خالية تقريباً من الماء والحبوب ، وقد كانت المنطقة خالية من السكان قبل أن يغزو الأعراب أفريقيا ، أما الآن فأن بعض الأعراب يحيون هنا حياة شظف ومسغبة بمنأى عن الأماكن الآهلة، وليس لديهم حبوب إطلاقاً ، غير أن الحبوب والضروريات الأخرى تأتيهم من صقلية بواسطة البحر" [21] . وقال آخر " أن الفقر وصل بالعرب إلى درجة أنهم يضطرون في سبيل الحصول على القمح إلى بيع أطفالهم إلى تجار صقلية المسيحيين ، وكان من حقهم أن يفتدوا أطفالهم إلا أن ذلك نادراً ما يحدث، فكان هؤلاء يبقون في الأسر ويتنصرون" [22] . بيد أن هذين الرحالين يجانبان الحقيقة تماماً في وصفهما فقد مر الإقليم بسنوات مختلفة من الرخاء ، فصار سلة الخبز ومخزن اللحوم والسمن والعسل للأقاليم المجاورة بما في ذلك جنوب أوربا . أما الأمر الآخر الأكثر أهمية هو, أن العربي المملوء عزة وكبرياء المجبول على الهجرات الدائمة ربما يفضل الهجرة من الأماكن المجدبة, أو أن يموت جوعاً على أن يفرط بأبنائه، أن التفريط بالأبناء منافي لأخلاقيات البدوي أو العربي أو المسلم والدين الإسلامي يحرم قتل الأبناء أو بيعهم مخافة السغب أو العوز ، " قد خسر الذين قتلوا[باعوا] أولادهم سفهاً"، "لا تقتلوا[لا تبيعوا] أولادكم من إملاق "[23] .

إلا أن المفروغ منه أن العوامل الطبيعية مثل مواسم سقوط الأمطار وتباين درجات الحرارة بين الفصول ، فرضت على القبائل البرقاوية تقسيماً سوسيولوجياً يحدده مدى الهجرات التي تمارسها القبائل كتلك شبه الرحالة التي تمارس هجرات جماعية موسمية مثل المغاربة وبعض فروع العواقير والبراعصة والعبيدات, ففي شهر كانون الأول (ديسمبر) حينما تفرغ تلك القبائل من زراعة الحبوب في نهاية الخريف بنمط الزراعة البعلية، عندها تكون الأعشاب في المناطق الجنوبية أو أقدام الهضبة قد نمت ، فتشد الرحال بشكل جماعي إلى هناك لرعي قطعانها حيث المناخ أكثر ملائمة بوجود تجمعات المياه عقب سقوط الأمطار ، فتظل القبائل هناك حتى نهاية شهر نيسان (أبريل) حيث تقل المياه وتنضج محاصيل الحبوب انتظاراً للحصاد , وتكبر الحملان الصغيرة التي ولدت في الخريف وتصبح الأغنام مهيأة لجز الصوف, وجمع البدو ما أمكنهم جمعه من السمن والألبان المجففة(الإقط), وهي بمجموعها سلع يراد بيعها في مدن و قصبات في برقة ، وتساق الحملان أو الأغنام البالغة لبيعها في أسواق مصر الواسعة. ويمضي الرعاة النصف الآخر من العام بين أيار(مايو) وتشرين الثاني(نوفمبر) في أعالي الهضبة بالقرب من العيون لرعي القطعان في المراعي التي بقيت من الموسم الماضي . أما القبائل الموغلة في البداوة كالعواقير والمنفة والحوتة وعائلة(عيت)غيث وعائلة شاهين من العبيدات وغيرها من تجمعات قبائل برقة فأن هجراتهم تمتد مديات أطول لأنهم يربون الجمال لأغراض منتجاتها من الحليب واللحم والوبر , فضلاً عما تعطيهم من ديناميكية الحركة حتى أن هجراتهم تمتد من فزان إلى النيل الأعلى في السودان ، بيد إنهم محرومون مما توفره لهم الأنواع الأخرى من الحيوانات كالضأن والماعز والدواجن من طراوة العيش , لذا غالبا ما يضطرون إلى إيداع حيواناتهم الأخرى عند أقاربهم في هضبة الجبل الأخضر لأن هجرتهم ربما تستمر لسنوات عديدة [24] .

أما القبائل المتوطنة فهي القبائل التي تنصب خيامها في مناطق محددة بالقرب من مصادر الماء والكلأ ، وربما كانوا يقومون بدورات قصيرة من أجل الزراعة والرعي كما هو الحال عند العرفة والحاسة بعض بطون العبيدات مثل عائلة منصور وعائلة مريم وعائلة رفاد ، وعلى أية حال فأن بدو برقة قوم مرتحلون لمسافات طويلة أو قصيرة أو متوطنون، بيد أنهم يتميزون بخصائص وأنماط تميزهم عن بقية السكان فهم من سكنة الخيام ومتشابهون بغذائهم ولباسهم وكلامهم ومخارج الحروف من أفواههم وسلوكهم ومشاعرهم وأحاسيسهم وهم في ذلك يشبهون البدو الرحل في كل مكان، وليس عسيراً على المتتبع أن يشخص البدوي في المدينة من أول وهلة ، من مظهره وأسلوب مشيه وخطواته وبساطته وصوته المرتفع وباختصار فالبدو يعدون أنفسهم شعباً واحداً في مقابل مجتمع المدينة ، الذي ينظر إليه البدوي بشيء من التحيز والتغرض، وإذا شاء البدوي أن يندمج في مجتمع المدينة وهو أمر ليس عسيراً ، فأنه يندفع في طريق لا رجعة فيه، فينسى أية علاقة تربطه بالقبيلة أو الصحراء ، ولكن العسير ربما المستحيل أن يندمج المرء المديني بمجتمع البادية [25] .

أدت الهجرات الجماعية إلى تدني قوى الإنتاج بسبب تناقص قواها العاملة وانخفاض قدرتها على العمل أو رغبتها فيه بتحول أنماط الإنتاج إلى الرعي وسيادة قيم البداوة المتأصلة التي يزدرى فيها العمل اليدوي في مجالات الزراعة والصناعة حيث تتطلبان الإقامة , لذا تراجع النشاط الزراعي في الإقليم لصالح تربية الأغنام أو الجمال التي لا تتطلب مهارة أو خبرة أو مشقة أو حماية أكثر من كونها رأس مال متحرك يسهل نقله أو الدفاع عنه ، وبنفس الطريقة تراجعت زراعة الأشجار المثمرة لصالح الحبوب التي لا تحتاج إلى إقامة طويلة أو مستقرة بل تحتاج إلى جهد موسمي ، ويمكن ممارسة هذا النمط من النشاط الزراعي إلى جانب الرعي [26] .

أدى التخلخل السكاني الذي شهده إقليم برقة وسيطرة العقلية البدوية على السكان وما رافقها من الكراهية والاحتقار للعمل اليدوي والاكتفاء بالضروري من الصنائع وقلة الاهتمام بالتعليم والتدريب إلى التوجه إلى حرفة التجارة التي تتناسب مع تلك التوجهات ، فيمكن وصفها بأنها قوافل من رأسمال متحرك , متممة للرأسمال المتحرك المتمثل بالماشية والإبل التي كانت تساق من

برقة وربما من أقاليم أخرى من أجل بيعها في مصر وكان الخروج بها يتم شتاءً أو ربيعاً عندما تقل الحاجة إلى الماء وتتباعد فترات طلبه ولإمكانية رعيها في الطريق أثناء السفر, وتخلص الرعاة من دفع الرسوم الجمركية عن سلعهم الحية التي كانت تسمى" الجزية". ومما يفسر ازدهار تجارة القوافل أو تجارة الصحراء في الأقاليم المجدبة التي لا يكاد إنتاجها الزراعي أو الرعوي يسد الحاجة المحلية (في بعض السنوات) , لذا فأن التجارة كفيلة بسد النقص الحاصل في البضائع التي تحتاجها هذه الأقاليم وأصبحت الجمال التي تربى فيها , وسيلة لتيسير العملية التجارية [27] .

اشتهرت برقة بثرواته الحيوانية " فهي دائمة الرخاء , كثيرة الخير تصلح بها السائمة وتنمو على مراعيها العجاف وكانت أكثر ذبائح أهل مصر منها ، كما اشتهرت بإنتاج الصوف والجلود والعسل والشمع "[28]. وكانت جزيرة مالطة شريكاً تجاريا مهماً لها في القرن التاسع عشر ، ففي الحروب النابوليونية سيطر الأسطول البريطاني على هذه الجزيرة المهمة وسيطرت الجيوش الفرنسية على أغلب أقاليم جنوب أوربا فزاد الطلب على اللحوم والغلات البرقاوية لتعذر حصول الأسطول البريطاني عليها من جنوب أوربا، ولم يتراجع الطلب على تلك المنتجات بعد هزيمة نابليون في عام 1815 [29] .

وشهد الإقليم خلال القرن التاسع عشر رخاءً اقتصادياً واضحاً ناجماً عن حركة التبادل في التجارة الداخلية بين الرعاة القادمين من البوادي والنجوع بالصوف والسمن ومنتجات الألبان المجففة واللحم ، والمزارعين المستقرين أو أشباه المستقرين الذين كانوا يقدمون القمح والشعير والتمر, وبين هؤلاء وأولئك ، وتجار الموانئ وسكان المدن الذين يقدمون البضائع الصناعية المحلية أو المستوردة من الأقاليم الأخرى في حركة تجارية دائبة من وإلى الإقليم بازدهار تجارة القوافل الصحراوية إلى السودان الأوسط والشرقي ، فمن درنة إحدى مدن الإقليم يخرج طريق يربط الإقليم بمدينة الفاشر ودرب الأربعين الذي وصفه أحمد دياب إبراهيم(*) كقناة السويس من حيث الأهمية من الناحية الاقتصادية والثقافية , مروراً بالغبوب وواحة سيوة وذكل وسليمة , ويرتبط درب الأربعين, أيضاً بمدينة بنغازي التي أضحت لا تختلف من حيث الأهمية عن طرابلس بعد أن صارت ملتقى لشبكة واسعة من الطرق الصحراوية القادمة من المغرب الأقصى وموريتانيا ونيجريا وتمبكتو ووداي وكانم – برنو والسودان الشرقي ومصر والحجاز لأغراض الحج والتجارة , وكانت واحات الجغبوب وسيوة وجالو وأوجلة والكفرة محطات مهمة على هذه الشبكة [30] ، فأُثرعت أسواقها بسلع أفريقيا مثل الرقيق والتبر والعاج وريش النعام والجلود والفراء , أو تلك القادمة إليها من أوربا ومصر كالمصنوعات المعدنية والزجاجية والأسلحة والسكر والقهوة والأرز والبارود وغيرها , وفي المواسم التجارية كان يبرك أو يحط الرحال في مناخاتها ما يزيد على ألفي جمل ، فيما تزدحم السفن التجارية في مينائها , وفيها العديد من الوكالات التجارية للدول الأجنبية[31] .

وعلى الرغم من ذلك بقيت مدن برقة صغيرة محدودة لأن الفوائض الإنتاجية والرعوية في الإقليم تصدر إلى أسواق غرب مصر كسيدي مطروح والإسكندرية وسيوة وكرداسة ،مقابل الحصول على عوائد أكبر لقاء هذه الفوائض. ويمكن القول أن صادرات الإقليم تشتمل على الحبوب كالقمح والشعير والحيوانات الحية (في السنوات الممرعة)والصوف والتمر والزعفران والحناء، والحصر والبسط والجلود والزيوت والشمع والعسل والبوتاس والملح والإسفنج[32]. وكان الرقيق البند الأكثر أهمية في تجارة الصحراء وكان هؤلاء المتاعيس ينقلون بأعداد ضخمة إلى واحات جالو وأوجلة والجغبوب وميناءي بنغازي ودرنة ومن هناك يصدرون بحراً إلى جهات مختلفة. وفي عام 1848 أصدر السلطان العثماني فرماناً حظر فيه هذه التجارة على الموظفين الأتراك , لاسيما في طرابلس , تمهيداً لمنعها التام في السنوات اللاحقة . فكان هذا الحظر مدعاة لهذه التجارة بالزيادة في بنغازي وتوابعها للبعد الهائل لإقليم برقة عن طرابلس. وفي العادة تخرج من برقة قافلتان أو ثلاث قوافل نحو وادَاي كانت تحمل معها البضائع الأوربية أو الملح من إنتاج ملاحاتها التي أضحت مصدراً لمعيشة عدد كبير من العرب " يثيرون له الأرض بالعوامل من الجمال والحمير وبالنساء إذا ضاق كسبهم عن العوامل وارتكبوا ضرورة المعاش " [33]، والملح البرقاوي الذي كانت تستثمره البندقية من ملاحة بنغازي وزوارة وفق اتفاقيات ومعاهدات بين الجانبين، منها الاتفاق التجاري بين الدولتين سنة 1763م على شحن 2500 كيس ملح سنوياً كحد أدني مقابل سكوين بندقي(*) واحد لكل كيس، ويسرى الاتفاق لمدة 20 سنة[34]. فقد أشار العياشي في النصف الأول من القرن السابع عشر إلى هذا التعاون بشهادة قال فيها "عند برج الملح ، نزل غالب الناس وفي ذلك المحل مرسي جيدة ينزل بها النصارى بإذن من أمير البلد يأخذون الملح من سبخة كبيرة هناك فيها ملح عجيب"[35]. ويبدو أن مدينة بنغازي قامت في حدود القرن الخامس عشر بالدرجة الأولى كميناء لتصدير هذه المادة العظيمة الأهمية , فكانت ملاحاتها موضع جذب ومورد رزق لبعض سكان المنطقة ومحط أنظار أعداد من المهاجرين إليها من المناطق الأخرى . ولم يقتصر تصدير الملح على البندقية فقد تم تصديره أيضا إلى الدنمارك علي متن سفن دنماركية, كما كانت السويد ومدينة ميلانو أيضا تستوردان الملح من الإقليم لذا لم تقل الحركة التجارية في مينائها عن الحركة في ميناء طرابلس[36].

وبعيداً عن استخراج الملح وتجارته كانت شواطئ برقة تعج بصيادي الإسفنج عالي الجودة من شركات إيطالية ويونانية حيث تنتج ما قيمته35% من قيمة الإسفنج المستخرج من شواطئ البحر المتوسط قاطبة , . ولم تكن هذه الحرفة نشاطاً محلياً إذ لم تألف القبائل البدوية أو السكان المستقرين نشاطاً كهذا وإنما هو تعبير عن ارتباط الإقليم بالسوق الرأسمالية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر , ويصدر أغلب الإنتاج إلى اليونان وبريطانيا وهولندا وإيطاليا , مقابل حصول الدولة العثمانية على إيرادات هذه الحرفة من خلال تعاقدها مع الشركات المستخرجة , بينما لم يستفد المواطن البرقاوي من عائد يذكر. أما صيد الأسماك لاسيما أسماك التونة فإنه لم يتحول إلى نشاط واسع وبقي في إطار تغطية الحاجة المحلية [37] . وعرفت برقة منذ القدم بنمو حشائش الحلفا(الاسبارتو) طبيعياً، وتعد هذه العشبة على قدر كبير من الأهمية إذ تقطع بكميات كبيرة وتصدر إلى بريطانيا لإنتاج الورق العالي الجودة لطباعة النقد[38]

وفي برقة أيضاً يصنع القطران بتقطير العظام ونوى التمر مع أخشاب العرعر فيوضع في جرة ويسخن إلى الدرجة التي يذوب فيها المزيج ويتقطر في جرة أخرى . وكان البرقاويون يستخدمونه في التداوي وطلاء الإبل أو معالجة قرب نقل المياه ، ويصدر الباقي ضمن قائمة المواد أو السلع التي يصدرها الإقليم [39]. فضلاً عن صناعة النسيج الواسعة الانتشار في مدن الإقليم

مثل بنغازي ودرنة حيث ينسج في أنوالهما الصوف والقطن والحرير والوبر بكميات ربما كانت تزيد على الحاجة المحلية , كما تنتشر ورش الحدادة والصياغة والصباغة وإنتاج القلال الفخارية وغيرها وهي بمجموعها جزء من الصناعة البيتية التي كانت منتشرة في مختلف أجزاء الدولة العثمانية [40] .

أدت التطورات الاقتصادية والسياسية التي شهدها العالم لاسيما الدولة العثمانية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وما تبعها من اضطرابات سياسية واقتصادية كنتائج مباشرة للثورة الفرنسية والتوسع الفرنسي بقيادة نابليون ، واندماج الدولة العثمانية في السوق الرأسمالية العالمية وتحرر المنتجين داخل العائلة من نمط الاكتفاء الذاتي الذي كان سائداً في القرون المنصرمة وتوجيه الإنتاج لأغراض السوق ، وأصبحت برقة مخزن كبير للغذاء الموجه لأوربا [41] ، كالحبوب واللحوم والسمن والعسل ، لاسيما في السنوات الممرعة ، والبضائع والسلع سواءً في المدن والأرياف والبوادي بكون مدنها نهايات لشبكة واسعة من طرق الصحراء، وهي تضم بين ظهرانيها عدداً كبيرا من الأنوال لصناعة النسيج[42] و تنتج حقولها كميات كبيرة من القمح والشعير وتربى في مراعيها أعداد هائلة من المواشي والإبل والخيول ، وتنتج أسرها الرعوية كميات كبيرة من الزبدة والجلود والصوف ، وقد أشرنا إلى ذلك في سياق البحث .

بيد أن ذلك كرس حالة الطبقية التي لم تكن معروفة في مجتمع برقة القبلي الذي كان يعيش بشكل مشاعي ، لاسيما عند النظر إلى ملكية الأراضي الزراعية أو المراعي ، وهي أراضي أميرية تعود إلى الدولة الحاكمة أو الفاتحة مما ينسجم تماما مع القيم الإسلامية القويمة ، فلا يوجد في المبادئ الإسلامية الأكثر أصالة إثرة لمصادر المياه أو للمراعي أو الكلأ إذ الناس فيها سواء , إلا أن ذلك لم يمنع من انشطار المجتمع القبلي في برقة أفقياً , فهناك عدد قليل من العائلات في القبائل الحرة أو الارستقراطية في براري برقة أو في المدن أوفي الواحات ، تملك الأراضي الزراعية والمراعي والآبار والقطعان وبساتين النخيل في الواحات ، كما تمتلك حق منح (التراخيص التجارية) والأنوال الصناعية والرقيق والمنشئات داخل المدن ، في مقابل الفقراء من الأحرار والمرابطين والفقراء في الواحات وقبائل التبو والشواشنة(*) والعبيد الذين لا يملكون شيئاً ، فقد تحولوا إلى فئات مستغّلة فكانوا في برقة يسمون الرباعة أي الذين يستحقون ربع المحصول أو الغلة ، وهم بالتأكيد أفضل حالاً من الخماسة .أما الجبادون الذين يستخرجون مياه السقي من الآبار ، وهم الأسوأ حالاً بين الجميع ، بل هم أقرب حالاً إلى العبيد، وغالباً ما يقرن الجباد بحمار يربط إلى دلو السقي[43].

كان النمط شبه الإقطاعي الذي ظهر في برقة في القرن التاسع عشر مرافقاً لتراجع نمط الترحال الدائم وميل القبائل إلى الاستقرار أو شبه الاستقرار أو الترحال الموسمي بين الهضبة ومناطق الدواخل المجاورة لها ، بيد أن الاقتصاد الرعوي والزراعة البعلية ظلت غير مستقرة ، وبقي خطر المجاعة ماثلاً في سنوات الجفاف ، وظلت حاجة القبائل الحرة لمن يحمل إلى جانبها السلاح للدفاع عن مصادر المياه والمراعي الفقيرة والقطعان ضد أطماع القبائل الأخرى قائمة ، مما رفع من شأن قبائل المرابطين غير المرتبطة بملكية الأرض ، التي أصبحت غير ذات جدوى في منعها من الهرب والتحرر من هيمنة قبائل السعادي ، التي تراجعت سطوتها نتيجة لذلك ، ولم يبق من أثر الاستغلال القديم سوى الادعاء والسمعة . ويبدو أن الحركة السنوسية استفادت من هذا النظام القبلي المعقد فاستخدمت معطياته في بناء نظام جديد على أنقاضه أكثر ملائمة وعصرية وتماسكاً ,وطرحت نفسها بديلاً عنه , وجسرت العلاقة بين السعادي والمرابطين فسيطرت على أفضل الأراضي الزراعية ومصادر المياه وتحكمت بطرق التجارة وانتزعت إعفاءات ضريبة من السلطة العثمانية ([44]. ولكن هل نجح السيد السنوسي في إقامة أخوية إسلامية قوامها المساواة بين السعادي والمرابطين والعبيد مساواة مطلقة ؟؟ هذا ما سنحاول الجواب عنه .

السكان والنظام الاجتماعي في برقة حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر

أشارت بعض المصادر المصرية القديمة إلى سكان برقة قبل فترة الاستيطان الإغريقي للإقليم، وقد أوردت الكثير من الإشارات إلى القبائل الليبية، سواء من حيث أسمائها وأماكن تواجدها وأنشطتها المختلفة، وعلاقاتها. فأشارت إلى المجموعات الليبية التي قطنت إلى الغرب من مصر تحت أسماء مختلفة. من هذه المجموعات قبائل التحنو، و التمحو والريبو أو الليبو التي اشتق منهم اسم ليبيا [45]. وكما أشارت المصادر المصرية القديمة إلى قبائل المشوش التي أعدت من أكبر قبائل إقليم برقة آنذاك، وقد ورد ذكرها في عصر الأسرة الثالثة عشرة 1580-1350ق.م وموطنها الأصلي خليج سرت إلا أنهم اتجهوا شرقاً حيث توفر المياه العذبة وتتهيأ الفرصة لحياة أفضل فاستقروا بإقليم برقة[46]. فضلاً عن ذلك تتوفر معلومات عن قبائل صغيرة ورد ذكرها في النصوص المصرية القديمة مثل قبائل البكن، الاسبت[47].

ويأتي هيرودت المؤرخ اليوناني الشهير على رأس من كتبوا عن قبائل برقة، والذي زار الإقليم في القرن الخامس قبل الميلاد، وسجل معلومات أساسية عن القبائل الليبية، لكنها عرفت بأسماء أخرى غير تلك التي وردت بالمصادر المصرية القديمة. منها قبيلة الجليجاماي. وقبيلة الأسبوستاي وقبيلة الأوسخيسايْ وقبيلة البكاليس وقبائل النسامونيس[48]. كما أن هناك رافد سكاني آخر مثل جزءا من العنصر السكاني للإقليم وهم المستوطنون الإغريق والرومان الذين توالت هجراتهم صوب برقة آنذاك[49]. ثم وفد إلى الإقليم عنصر بشري آخر هو اليهود أثناء العهد البطلمي بدءا من الربع الأول للقرن الثالث قبل الميلاد كمرتزقة يخدمون بالقوات البطلمية وحفظ النظام الداخلي وحراسة الحدود، واستمر وجود اليهود وتوافدهم إلى الإقليم دون انقطاع خلال العصور التالية [50].

أما في الحقب الإسلامية المتتالية فقد حوت المصادر العربية والإسلامية معلومات وفيرة عن القبائل البربرية التي لم تذكرها المصادر المصرية والإغريقية القديمة. ومن أهم تلك القبائل التي انتشرت في سائر الإقليم ومثلت أهم عناصر السكان، هي قبيلة لواتة التي امتدت بطول المنطقة ما بين رمادا شرقاً وأجدابيا غرباً، فضلاً عن قبيلة مزاتة اللواتية التي قطنت منطقة تقع ما بين سرت وتاورغا، وقبيلة لمطة وصنهاجة اللتين استوطنتا ما بين أوجلة وأجدابيا. كما ذكرت المصادر العربية العجم القاطنين في الإقليم زمن الفتح العربي باسم الروم[51].

كان استقرار الجند من القبائل العربية القحطانية والعدنانية بأراضي برقة جر وراءه هجرة موجات كبيرة من هذه القبائل في تزامن مع الفتح الإسلامي مثلما كان الحال في معظم المناطق العربية الأخرى التي فتحها المسلمون الأوائل مثل الشام ومصر وغيرهما, الأمر الذي أدى تغلب الطابع العربي بشريا وثقافيا على العناصر , كما أدى إلى تلاقح أثني حضاري مع المجاميع البشرية التي سبقت العرب إلى هذه الجهات كالبربر, فكان الدين الإسلامي هو المتغير الحضاري الأبرز الذي نقله العرب إلى هناك , فضلاً عن مشاركتهم بقوة في النشاط الاقتصادي المتاح آنذاك كالزراعة والرعي والأنشطة الصناعية والتجارة, فشاركوا في قيام مجتمعات ذات خصائص حضارية متميزة ، ومن أهم القبائل اليمنية بني مدلج التي قطنت المنطقــة الواقعـة بين الإسكندرية شرقاً وبرقة غرباً ، كما استوطنت قبيلتا بلى وجهينة القحطانيتين منطقة رماده ببرقه، كما سكنت قبيلتا بني لخم وجذام وصدف الجبل الواقع شرق برقة (المرج) وأقوام من غسان والأزد وجذم الجبل الواقع غرب برقة [52] .

بيد أن أهم الهجرات التي نزحت إلى إقليم برقة أو مرت به في الحقب اللاحقة هي تلك الموجة التي قدمت من صعيد مصر في عام1051 من القبائل العربية القيسية التي هاجرت قبل ذلك من الجزيرة العربية تحت ضغط القحط الدائم الذي تتصف به مواطنهم الأصلية في الحجاز ، مثل بني هلال وبني سليم وبطونهما ، الذين أعلنوا التشيع لآل البيت كرمهم الله طمعاً في رفد الفاطميين وإغاثتهم من ظلم السلطات العباسية ومن الواقع المزري الذي كانوا يعيشونه. وكان دخولهم إلى مصر بأعداد كبيرة مناسبة سارة للفاطميين الذين رأوا فيهم خياراً مناسباً لتقليم أظافر المعز بن باديس الذي تنكر للفاطميين والتشيع بعد دخولهم مصر وأعلن عودته إلى المذهب المالكي والدعوة للخلافة العباسية. فاستقر السليميون في برقة بعد أوهموا بأن الإقليم قد أقطع لهم من قبل الخليفة الفاطمي،وفي واقع الحال لم يكن السليميون بحاجة لمن يقطعهم أرضاً فبقيت هذه القبائل الشديدة المراس بين الإسكندرية وخليج سرت،فاستوطنت بطون بني هيب وبـنو لبيد ذات النفوذ القوي في الأجزاء الشرقية بما فيها مدينة برقة(المرج)،بينما ساد بنو عـوف وبنو دياب في الأجزاء الغربية.بيناماواصل بنو هلال هجرتهم إلى المناطق الغربية إلى طرابلس الغرب وتونس وأفريقيا [53].

لم يكن بنو سليم من حملة الحضارة ولم تكن لديهم فوائض اقتصادية كافية لتكوين ارستقراطية يمكن أن تلتف حولها بطونهم ,وليست لديهم عصبية دينية تربطهم ,إلا قليلاً من حب أهل البيت ، بل كانوا موغلين في بداوة جافة عمادها رعي الإبل وحمل السيف , الذي يظهر استعدادهم للقتال إلى جانب من يدفع لهم أكثر وصدق عليهم القول بأن "رزقهم تحت ظلال سيوفهم" , فربت مكانتهم في أعين القوى المتصارعة كصنهاجة وزناتة وبنى زيري وبني خزرون ومن ورائهم ، من فاطميين شيعة وعباسيين ومالكية وأمازيغ إباضية فتقربت إليهم هذه الأطراف بالعطايا والمصاهرة وتعززت بذلك البداوة فكانوا سبباً في اندفاع السكان في هجرة معاكسة من برقة فأقفرت البلاد من سكانها , وتدنت الزراعة وتقلصت الحرف وتراجعت تجارة الصحراء التي كانت مزدهرة قبل ذلك من وإلى الإقليم بسبب تعرضهم للقوافل الذاهبة أو الآيبة ولم يسلم منها إلا تلك التي انضوى أصحابها تحت حمايتهم , ومع مرور الوقت خفف هؤلاء من شدة بداوتهم واعتنوا بتربية الضأن فضلاً عن الإبل واهتموا بزراعة الحبوب وغراس النخيل والأشجار وتربية النحل وتسويق العسل واستخرجوا القطران من العرعر[54], وكونوا تجمع ارستقراطي هائل في برقة حافظوا عليه بحصر الزواج بين أبناء القبيلة نفسها أو القبائل الحرة أي يجب أن تكون المرأة مكافئة للرجل من حيث أثالة المحتد ، ففرضوا على المجتمع المحلي أو أخلاط الفاتحين الأوائل المكون من العرب والبربر ، ارستقراطيتهم بكونهم هم القبائل الحرة وغيرهم أقل شأناً منهم , فكرسوا إلى الأبد الثقافة والمحتد العربي الأصيل والدين الإسلامي ،وهم تجمع قبائل "السعادي" نسبة إلى سعدى[*] أحدى نساء بني سليم ، أو قبائل الأحرار أو الارستقراطيون ، مقابل تجمع قبائل "المرابطين" ومما لاشك فيه أن برقة البدوية أكثر عروبة من العراق ومصر والسودان وتونس وطرابلس على حد إعراب الدكتور عبد الجليل الطاهر[55] ، ولابد لنا قبل الانتقال إلى تفرعات بني سليم وديناميكيتهم وتحالفاتهم في برقة ، معرفة النظام القبلي وبعض أعراف القبائل وتقاليدها في برقة بقليل من الإسهاب .

لقد حافظت المجتمعات البدوية على أعرافها وعاداتها وتقاليدها منذ عصور موغلة في القدم في برقة وفي غيرها من المجتمعات المماثلة ، وشكلت الأسرة الأبوية في مجتمع برقة البدوي أو المديني وحدة البناء الرئيسة , فكل أسرة تسكن بيت واحد أو خيمة واحدة ،وتشكل مجموعة من الأسر الصغيرة أسرة كبيرة يشار إليها بالعائلة وأفرادها يتحدرون من جد واحد وتضم بين ظهرانيها أفراداً ينتمون إلى الجد الخامس وكل عائلة من هذا النمط تتمتع بوضع مستقل في إطار العشيرة ، ولها شيخ نافذ الكلمة داخل العائلة ، ومن مجموع العوائل تتكون العشيرة التي تتمحور حول عائلة الشيخ الكبير للعشيرة، وهو ذو هيبة وسطوة على الأسر الصريحة أو تلك الموالية داخل عشيرته، ومن الناحية النظرية فقط أن جميع أعضاء العشيرة متساوون في المأكل والملبس والتمتع بصورة مشتركة بالمراعي ومصادر المياه والماشية ، ولكن في حقيقة الأمر فقد تكون خيمته أو مضارب خيامه أكبر أو أرفع من بقية الخيام ويملك عدداً أكبر من الإبل والخيول والأغنام وقد تكون في عصمته عدد أكبر من الزوجات ، وفي نهاية الأمر لديه عدد أكبر من الأبناء ، وربما كان متعلماً أفضل من الآخرين أو يتمتع بمؤهلات الذكاء وبدوره يهيئ لأبنائه تعليماً أفضل من بقية الصبيان في القبيلة [56] .

وعلى الرغم مما كان يصيب المرأة من عسف في الأعراف البدويـة لاسيما في قضايا الزواج والطلاق وزواج الشغار[*] والحجر[**] والحرمان من الإرث بدعوى إنها تنقل أملاك العائلة إلى عائلة أخرى خارج القبيلة، لاسيما إذا اقترنت برجل خارج محيط العائلة الكبيرة، وربما تجبر على الزواج بمن لا ترغب أو بمن يفوقها عمراً، أو أن تكون زوجة ثالثة أو رابعة أو أن تطلق دون رغبتها أو تجبر على المعاشرة بدون إرادتها، إلا أنها تبقى أفضل حالاً من نظيراتها في المدن، وتعاملت معها الأعراف البدوية بشيء من التسامح فلا تؤاخذ أو تطلق ونادراً ما تقتل أذا أقدمت على الزنا برغبتها ورضاها، ويتحمل شريكها وزر ذلك العمل ربما لاعتقاد المشرع البدوي بضعف المرأة وعدم قدرتها على الدفاع عن نفسها. "وهن مصدقات على فروجهن" وبإمكانها دفع مغبة ممارستها الزنا برضاها أو دون رضاها . وعلى أية حال تمتعت بمكانة مناسبة لدورها في مجتمع برقة البدوي وبهامش كبير من الحرية في العمل ومراقبة الماشية وركوب الإبل ، وإدارة المنزل، وربما يفخر البدوي بزوجته التي تقوم مقامه في إكرام الضيف وإيواء عابري السبيل ، ومن هذا الفخر أصبحت كثير من النساء مسميات لقبائل مثل عائلة بو جازية وعائلة مريم في قبيلة العبيدات

وعائلة فاطمة والدايخة في قبيلة البراعصة ونوارة وساسية في نجم وغيرها. وافتخر بعض الأبطال والمحاربين بالتسمية بأسماء بناتهم أو أمهاتهم مثل بو حوا و بو نجوى بو خديجة [57].

لم تكن القيم والأعراف البدوية حكراً على مجتمع برقة, بل هي قيم وأعراف كانت سائد في مجتمع القبيلة العربية منذ ما قبل الإسلام إلى اليوم ، فكل قبيلة هي وحدة إنتاجية اقتصادية اجتماعية مستقلة منكفئة أو منغلقة على ذاتها ، لها كلمة نخوتها التي تعد كلمة السر داخل القبيلة فهي كلمة نداء النصرة أو الاستغاثة واستثارة الهمم في حومة الوغى ، ولها رايتها الخاصة التي تحمل شعار أو رمز القبيلة ، وميسم جمالها . ومن الناحية النظرية أيضاً أن مشيخة القبيلة تعطى لكل فرد قادر على حملها ، بما له من مؤهلات كالشجاعة والبسالة إذ كونه رئيساً لمجموعة محاربة ، والحلم والأناة وسداد الرأي ليؤدي دوره في تهدئة النزاعات بين أبناء القبيلة وتقمص دور القاضي، والكرم والغنى حتى يتمكن الإنفاق عن يسر على الجائع والمعسر والضيف ، والمروءة والاحترام ،ليكن في مقدوره جمع الضريبة من المكلفين بدفعها من رجال القبيلة إلى السلطات العثمانية أو المحلية ، وله الكلمة العليا في تقسيم المراعي أو مصادر المياه بين عائلات القبيلة وعشائرها . أما من الناحية الواقعية فأن مشيخة القبيلة تنتقل وراثياً داخل العائلة الكبيرة من الأب إلى الابن أو الأخ أو لأحد أنسباء أثالة المحتد[58] . ومن أهم الأسر المعروفة بحصر مشيخة القبيلة فيها هي بيت بو بكر بو حدوث بين البراعصة , وبيت عبد الله بين العبيدات وبيت الكزة والعبار بين العواقير وبيت عصبالي بين العرفا وبيت سويكير والعلواني بين العبيد وبيت بو خطرة بين الحاسة وبيت الإطيوش في المغاربة سيف النصر بين أولاد سليمان في سرت [59].

من المؤكد أن المساواة بين أبناء القبيلة الواحدة القائمة على أساس الانتماء لجد مشترك إحدى أهم الأركان التي قام عليها المجتمع القبلي في برقة قبل القرن التاسع عشر ، فهم متساوون في امتلاك القطعان والمراعي والآبار ومعدات الإنتاج الأخرى ، بيد أنه مع حلول القرن التاسع عشر وتحول الأراضي الزراعية إلى سلعة قابلة للبيع والشراء وارتباط برقة بالسوق الرأسمالية العالمية ، سرت الطبقية بين أبناء القبيلة الواحدة وأصبح من حق مجموعة بعينها التصرف بأفضل الأراضي الزراعية وأخصب المراعي وأغزر الآبار ، وأصبح من حقها أيضاً استغلال باقي أفراد القبيلة لاسيما مرابطي الصدقة ، الذين صاروا يقدمون خدماتهم لميسوري الحال من أبناء القبيلة ، كرعي قطعان الضأن والإبل لقاء جعول معينة لفترة محددة ، وكان عليهم أيضاً تقديم فروض وإتاوات لميسوري القبيلة لتغطية نفقات الضيافة ، أو تغطية تكاليف زواج أو وفاة أحد الشيوخ داخل إطار القبيلة ، أو دفع الديات لقتلى شيخ القبيلة أو أحد أبناء أسرته ، وهي بمجموعها إتاوات فروض وواجبات إقطاعية في الاقتصاد الرعوي (إذا جاز لنا القول) على الفئة الدنيا والموالين داخل القبيلة تقديمها للشيخ أو (البارون البدوي) الذي عليه تشريع علاقات الإنتاج ويركز بيده أدوات الإنتاج والسلطة القضائية ، وفي أغلب الأحيان فهو ممثل السلطات الإدارية ، وفي أحيان كثيرة السلطة الروحية أيضاً [60].

تميز إقليم برقة بفراغ سكاني واضح , للأسباب كثيرة ومتشعبة منها تقلبات العوامل الطبيعية مثل توالي سنوات الجفاف التي تؤدي إلى انتشار المجاعة والهلاك بالجملة للحرث والنسل والثروة الحيوانية ، وربما كانت تلك النوازل مرافقة لجوائح الأوبئة التي كانت تضرب القارات القديمة باستمرار، لانعدام الوقاية الصحية والنظافة والعناية الغذائية كنوبات الطواعين التي كانت تصيب الإقليم بشكل متوالي ، فتتحول إلى كوارث حقيقية فتدفع بالقادرين من السكان إلى الهجرة إلى أقاليم أخرى ممرعة وخالية من الوباء, لاسيما أن برقة مفتوحة على أقاليم مماثلة كالإقليم الممتد من الإسكندرية إلى العقبة الكبرى (السلوم) , أو ذلك الإقليم الممتد من سرت إلى القيروان المتمثل بإقليم طرابلس الغرب . فضلاً عن أسباب أخرى مثل الحروب القبلية وهجمات الأوربيين في القرون الحديثة في صراعهم مع المسلمين , التي أسهمت بنقص السكان بالقتل أثناء المواجهات الحربية أو بالأسر والاختطاف, أو هجرات القبائل البدوية المقاتلة إلى الإقليم كالقبائل الهلالية والسليمية في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي , أو هجرة قبائل بقضها قضيضها هروباً وتملصاً من التعسف الضرائبي , الذي لم يكن ضرائب بالمعنى الدقيق قدر كونه إتاوات تفرض على تلك القبائل لتغطية إسراف سلطان وبذخ إقطاعي غير مبرر , ويزخر تاريخ الأسرة القرمانلية بأمثلة كثيرة ، او هجرة بعض القبائل البرقاوية تحت ضغط قبائل برقاوية أخرى بمساعدة السلطة القرمانلية ، والأمثلة على ذلك كثيرة [61] . وعلى أية حال فقد قدر عدد سكان الإقليم في منتصف القرن التاسع عشر بما لا يزيد على ربع مليون نسمة [62] , انتشروا على مساحات هائلة بين النجوع والبوادي والقصبات والتجمعات المدينية . وتعد بنغازي مركز الإقليم الإداري وأكبر التجمعات المدنية فيه و تأتي بعد ذلك مدينة درنة ثم المرج التي كانت قاعدة عسكرية للجند العثمانيين .

ينقسم تجمع السعادي المكون من عشر قبائل إلى فرعين عظيمين هما " جبارنة " و"حرابي " ، ويقسم الجبارنة إلى قبائل كثيرة مثل الفواید والجوازي وهما قبيلتان كبيرتان طردتا إلى صحراء مصر الغربية تحت ضغط القبائل الأخرى من السعادي ، والمغاربة وهم قبيلة كبيرة قطنت المنطقة الممتدة من أجدابيا إلى خليج سرت ، والعواقير والبراغيث والعرفا التي كانت تقطن بين طلميثة وتوكرة والعوابد، وقطنت بمجموعها بين بنغازي حتى حوض المرج [63]. أما الحرابي وهم فرع من العقاقرة طغى اسمه على التجمع كله ربما لكبر القبائل المنتسبة لهذا الفرع وسطوتها كقبيلة العبيدات القوية الهائلة العدد بفروعها الكثيرة التي تمتد مضاربها من سمت درنة حتى العقبة الكبرى ، وقبيلة البراعصة الشديدة المراس الكبيرة العدد التي كانت تقطن وسط الجبل الأخضر بين الدرسة من ناحية الشمال والحاسة وأولاد فايد من الشرق والعبيد ناحية الغرب . والدرسة التي تمتد مضاربها في الشريط الساحلي من شحات حتى طلميثة وفايد والحاسة التي تعيش في منطقة غنية بالينابيع والأراضي الخصبة بين شحات ومرسى سوسة[64] ، وبالحرابي يتصل أولاد عمومتهم أولاد على وهم تجمع آخر اضطر إلى ترك برقة إلى مصر تحت ضغط قبائل الحرابي بمساندة حكام طرابلس القرمانليين فيما يسمي عند أهل برقة بـ"تجريدة حبيب " في عام 1750، وحبيب العبيدي هذا بن عبد المولى الأبح شيخ العبيدات وعموم الحرابي ، فاستوطنوا الشريط الساحلي الممتد بين السلوم والإسكندرية[65]. وهناك فروع كبيرة أخرى تنتسب إلى بني سليم السعادي سكنت وادي النيل والفيوم ، وغيرت مهنتها بمرور الوقت إلى الفلاحة ، أن برقة كانت مصدر القبائل البدوية التي سكنت منطقة البحيرة والفيوم وفي الصعيد ، ويقال لا توجد قبيلة برقاوية إلا ولها امتداد في مصر

، وهم إلى اليوم يتمسكون بقيم النبالة العربية ويسكنون الخيام ويتكلمون اللهجة السائدة في برقة ذاتها ، ويقدر عددهم في منتصف القرن العشرين بـ40,000 نسمة [66] .

كانت تقسيمات الأراضي والمراعي غير مرضية لكل القبائل ، الأمر الذي أدى إلى استمرار النزاعات القبلية التي كان مبعثها ملكية الأرض ، فكانت القبائل الحرة من أحفاد بني سليم(السعادي) أو بعضها تعد نفسها مالكة للأرض الزراعية التي تستحق الصراع ، لذا دخلت في صراع مع القبائل الأخرى ، ففي 1770 عشر طُرد الفوايد (جبارنة) بتجمع قبلي كان يضم المغاربة والعواقير (جبارنة) والبراعصة (حرابي) ، إلى الفيوم والمنيا في مصر بعد خسارتهم في موقعة الرجمة . وفي مطلع القرن التاسع عشر تظافر تجمع قبلي آخر مكون من المغاربة والعواقير والعوابد والعرفا ضد قبيلة الجوازي المدعومة بغيث سيف النصر شيخ أولاد سليمان في خليج سرت ، وكانت وفاة شيخ الجوازي عبد النبي أبو مطيريد (حمار برقة) سبباً في هبوط عزائم رجال القبيلة , ولم تجد نفعاً مساندة سيف النصر فأوجلوا إلى مصر بعد حروب طاحنة وضارية ووحشية بين القبائل [67], بيد أن طردهم إلى مصر لم ينه النزاع القبلي بل استمرت عمليات الكر والفر بين الجوازي وقبائل برقة الأخرى ، ففي عام 1817، تحالف الجوازي مع أولاد علي مع محمد بن يوسف القرمانلي ضد قبيلة العبيدات ولكنهم هزموا بمساعدة الجيش القرمانليين ورحلوا إلى مصر بشكل نهائي [68] من برقة حتى تدخل المرابطون بين الطرفين وأعادوا السلام إلى ربوع الإقليم[69] .

وفي عام 1811تعرض القسم الغربي من ليبيا إلى قحط شديد بسبب انحباس سقوط الأمطار فوفدت قبائل الحسون والزواوات والفرجان والمعدان الغربية إلى برقة بزعامة الشيخ صالح بن رزق الله الحسوني طلباً للماء والكلأ، فأحسنت القبائل البرقاوية(العواقير والمغاربة والعريبات) وفادتها , بيد أن القبائل الوافدة أساءت التصرف مع القبائل البرقاوية فعمدت على إزاحتها والاستيلاء على أراضيها ، فطلبت القبائل البرقاوية إمهالها حتى تنجز حصاد محصولها من الحنطة والشعير , دون أن تجد آذاناً مصغية لرجائهم ، وللمرة الثانية حاولوا حل هذا الإشكال بصورة ودية فأوفدوا إلى الشيخ صالح اثنين من زعمائهم وهما الفقيه الفزاني الذي كان يتمتع بين أفراد قبيلة المغاربة بالهيبة والشرف ، لأنه كان معلم القرآن الكريم لأولاد الإطيوش شيخ المغاربة ، بمعية أحدهم ، فقام الشيخ صالح بخطوة نكراء تعوزها المروءة والحصافة , فقتل الفقيه وصاحبه وصلبهما على ظهر بعير وأرسلهما إلى قبيلة المغاربة لإنذارها , فاستاءت قبائل برقة عن آخرها من هذا العمل الشائن ، فردت عليه بكمين نصب للشيخ صالح الحسوني أصطيد به هو وابن له , ثم صالت قبائل برقة فتمكنت من طرد القبائل الغربية إلى خارج برقة [70] .

لقد كانت صحراء مصر الغربية امتداداً لإقليم برقة وكانت على الأغلب متنفساً للقبائل المنهزمة من الصراع داخل برقة , كما كانت واحات الجنوب البرقي مجالاً آخراً للهروب من الصراع أو للغزو من قبل القبائل الجائعة في أوقات الجفاف كوسيلة للتغلب على تبعاته ، بضمان الحصول على ميرة من التمر، فقد أعطت عائلة إبراهيم إحدى عشائر قبيلة المغاربة السعادية التي كانت تقطن منطقة أجدابيا القليلة الأمطار شرق سرت ، أعطت صورة عن التحالفات بين القبائل الارستقراطية وتلك الأقل شأناً من أجل الميرة ، فرنت بنظرها إلى مصاهرة عائلات في واحتي مرادة وزلة ، من اجل الحصول على عائد سنوي من التمور من أصهارها فيهما[71].

ودخلت قبيلة الزوية المرابطة ، وهي إحدى جمرات الصحراء ، في تنافس شديد مع قبيلة المغاربة مما اضطرها إلى انتهاج سياسة توسعية ، فغزت واحات الكفرة وتازربو وصخرة وفرضت على التبو علاقات تبعية في الواحات المذكورة ، فملكت معظم مزارع النخيل بين شمال أفريقيا وشمال شرق تشاد، فضمنت محصولاً من التمور دون أن تفلح القبيلة المذكورة بساتين النخيل ، واضطلع التبو بهذا العمل لدفع غائلتها ، وانصرفت القبيلة المذكورة إلى التجارة بالتحالف مع المجابرة وهم اتحاد قبلي لا يقل عنها جسارة في واحات جالو والجغبوب وسيوة ، وهم تجار لا يشق لهم غبار بين واداي والكفرة والجغبوب وبنغازي والقاهرة عبر سيوة وكرداسة . وكانت القبليتان المرابطتان من أخلص أتباع السنوسي الكبير وأداتيه المهمتين في تطويع الصحراء وتأمين طرق التجارة [72] .

أذكت هذه النزاعات القبلية تلك نظام الأحلاف أو الولاء القبلي أو الجوار ، وهو نظام كان موجوداً في الشمال الأفريقي لاسيما في برقة قبل القرن التاسع عشر وهو لاشك جزء لا يتجزأ من الأعراف البدوية ، وفحواها أن تقبل القبائل الحرة أشخاصا أو أسراً وحتى قبائل بكاملها ضمن القبيلة الحرة من أجل الارتفاع بمنعتها أو زيادة مقاتليها ، فيسري أسم القبيلة على الوافدين الجدد وعليهم نفس الواجبات ولهم نفس الحقوق بما في ذلك حمل أسم القبيلة الحرة والانتماء إلى رابطة دمائها ، بيد أن الحليف لا يعد مساوياً تماماً للأبناء القبيلة الحرة ، مع أن نظام الحلف أو الولاء أو الجوار يضمن للموالي أو الحليف الملاذ والحماية أسوة بالرجل الحر تماماً[73]. لذا انضمت قبائل المرابطين إلى القبائل الحرة من أجل الحماية أو التمتع بالامتيازات التي توفرها القبائل الحرة لهم .

لا يمكن الجزم بأصول المرابطين فقد تضاربت الآراء بشأن قدومهم إلى الشمال الأفريقي ، لاسيما إلى إقليم برقة .ومن المرجح أن بعضهم ينتمي إلى القبائل التي كانت تقطن المنطقة قبل قدوم الموجات التي رافقت الفتح الإسلامي ، أو قبل قدوم الموجة الأخرى التي حملت بني هلال وبني سليم إليها. ويبدو أن شمال أفريقيا كان في بدايات العصور الحديثة دار جهاد ضد هجمات أساطيل الإمبراطورية الرومانية المقدسة وجيوشها في صراعها مع الدولة العثمانية , لذا استقطبت هذه المنطقة كل الراغبين بالجهاد ، لاسيما أولئك القادمين من المناطق الغربية المتمثلة بالساقية الحمراء من أعمال المغرب الأقصى ، أومن أولئك النازحين من الأندلس ، هربا من الإبادة على أيدي الاسبان إلى سواحل برقة ومدنها مثل مدينة بنغازي ، ودرنة بمينائها المناسب وتوفر المياه فيها فكانت منطقة ملائمة لقيام الربط[74] . وقد رفد هؤلاء وأولئك إقليم برقة وشمال أفريقيا بعدد كبير من المثاوي والأضرحة الممتدة على طول سواحل البحر المتوسط ، التي أضحت مأوى للسكان للاحتماء بها من هجمات البدو وقطاع الطرقات واللصوص والعابثين، لما لهؤلاء من قدسية في نفوس البدو , ففي برقة كان ضريح سيدي بنغازي، وقبر الصحابي سيدي رافع الأنصاري في البيضاء ومقبرة الصحابة في درنة وغيرها فكونوا بمرور الزمن عصبية جديدة مبجلة محترمة محايدة أصبح ينظر إليها بقدسية , لاسيما أن بعض هؤلاء ادعى بالانتساب إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وهم "مرابطو البركة"[75] .

لم تقتصر وظيفة هذه الربط على الجوانب العسكرية والدينية فحسب , بل تعدت لأن تصبح مراكز لتعليم الحرف الضرورية والكتابة والقراءة لاسيما قراءة القرآن التي كانت تعد آنذاك من المعجزات التي يتمتع بها المرابط , ونشر الثقافة الدينية لتخريج دعاة لنشر الإسلام في المناطق البعيدة , وأصبح هؤلاء المرابطون مع مرور الوقت جذور لقبائل جديدة. وعلى العموم يقسم المرابطون إلى تجمعين كبيرين من القبائل هم "مرابطو البركة" و "مرابطو الصدقة" (الصدقان) . وتختلف المنزلة الاجتماعية لمرابطي البركة عنها لمرابطي الصدقة حيث يعتقد مرابطو البركة بإثالة المحتد التي لا تلزمهم بتقديم الخدمات التي يجب عليهم تقديمها للأحرار ، وهي منزلة مشكوك فيها من قبل الأحرار الذين كانوا غير مجبرين اعتبارهم مكافئين لهم , وهم قبائل أولاد سيدي الشيخ والمسامير والفرجان وغيرهم . ولم يعد مرابطو الصدقة أنفسهم مستقلين , فهم يدفعوا صدقة أو خاوة مقابل حمايتهم أو استثمارهم للأرض أو استخدامهم لمصادر المياه ، على شكل خدمات وفروض خدمية مثل الحراثة والحصاد والرعي أو تنظيف حظائر الحيوانات لذا أطلقت عليهم تسمية "مرابطي العصا والزبل أو الصدقة" لأنهم كانوا يضربون بالعصا إذا ترفعوا عن نقل الزبل، إنما تعكس تلك التسمية تدني منزلتهم الاجتماعية, فنعتوا بتلك التسمية للحط من كرامتهم. وتنضوي تحت هذا المصطلح بقية قبائل المرابطين [76].

وعلى الرغم من أن مجتمع برقة البدوي يعيش في بنمط المشاعية البدائية الإنتاجي , لاسيما في أعراف ملكية الأرض وملكية وسائل الإنتاج البسيطة ، بيد أن ما يجب على مرابط الصدقة تقديمه لحاميه هو أشبه بالفروض التي يقدمها الفلاح القن إلى مالك الأرض(البارون) في النظام الإقطاعي الأوربي , لذا غالباً ما تندمج هذه القبائل ضمن القبائل الحرة, طلباً للحماية أو ما توفره لهم هذه القبائل من امتيازات اقتصادية كرعي حيواناتهم أو الفلاحة في أراضيهم ، لذا نرى في أحيان كثيرة أن أعدادهم كانت تبلغ نسب عالية من أعداد أبناء القبيلة الأحرار ، فمثلاً بلغ عدد قبيلة العبيدات وهي أكبر قبيلة في تجمع السعادي على مشارف القرن العشرين (عندما توفرت معطيات إحصائية) 30,450 نسمة بينهم 8,600 مرابط ، وربما كان المرابطون أكبر عدداً من الأحرار في قبيلة أولاد فايد البالغ عددها 100 نسمة [77] وقد بلغ عددهم على أعتاب القرن العشرين 44,620 في برقة ، بينهم 39,520 مرابطاً, وقدرهم أوغسطيني في عام1920 بعد الاحتلال الإيطالي 134,550سعداوياً و40,600مرابط(*)من الصدقان (مرابطي الصدقة) والبركة من ست عشرة قبيلة [78] ، وهم على العموم القطعان والمنفة والشواعر والحبون والزوية والسعيط والمجابرة والحوطة والموالك والتراكي والجميعات والشهيبات والعشيبات والعوامة والجرايرة وسواهم [79] .

يبدو أن تقديرات أوغستيني لم تكن دقيقة تماماً فإذا نظرنا إلى أعداد الأحرار والمرابطين في كل عشيرة(عائلة) ندرك أن الأحرار أو الارستقراطيين استقطبوا عدداً أكبر من عددهم من المرابطين لاسيما من الصدقان وهذه الأعداد مقبولة جداً لحاجة الطرفين لبعضهما ، لاسيما في العائلات الكبيرة داخل القبيلة ، فمثلاً يشير الدكتور علي عبد اللطيف حميدة إلى عائلة بو حدوث وهي أكبر عائلة في البراعصة مركزاً ، إلى أن عددها 1,940 كانت تضم بين ظهرانيها 740سعداوياً (أقل من النصف) والباقي من المرابطين . ويشير أيضاً إلى إحدى عائلات الحاسة وعددها 7,700منهم فقط 1,625 سعداوياً والباقي من المرابطين . وفي حالات كثيرة كانت قبيلة المرابطين عندما تشعر بسطوتها وقوتها وقدرتها على الوقوف أمام القبائل الأخرى , ليس لازدياد عدد مقاتليها فحسب بل لعوامل أخرى , نرى أنها ترفض هيمنة القبيلة السعداوية فلا تدفع صدقة ولا تؤدي الخدمات الأخرى ، وربما تصبح قادرة على ازاحة قبيلة أخرى لتحل محلها كما فعلت قبيلة الزوية التي أصبحت منافسة لقبيلة المغاربة في أجدابيا وأزاحت قبائل التبو عن الكفرة وتازربو[80].

وثمة روافد قبلية أخرى وفدت إلى برقة خلال القرن السادس عشر أدت دوراً هاماً في تشكيل التركيبة السكانية للإقليم ، وكان لها تأثيرها الواضح على الأحداث السياسية خلال حقبة الحكم العثماني الثانية ، و منها هجرات القبائل التي انطلقت من إقليم طرابلس بحثاً عن سبل حياة أفضل في برقة ، تمثلت في نزوح عدد من العائلات التي وفدت من تاجوراء ومصراته ومسلاته وزليطن، واستقرت في بنغازي ودرنه بصفة أساسية. كما وفدت مجموعات من أسر أندلسية تحت وطأة الحروب التي شهدتها الأندلس قرب نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، فنزلت لفترة زمنية في مراكش والجزائر، ثم اتجهت صوب الشرق تدريجياً حتى بلغت برقة خلال القرن التالي واستقر بها المقام في مدينة درنة بصفة أساسية. ومن أشهر هذه الأسر: عزوز، المؤدب، الإمام[81].

ووفدت إلى برقة في الحقبة العثمانية الأولى بعد أن أخضعها العثمانيون في 1635 عائلات من القولوغلية (الكراغلة) وهم أسر الجند الانكشارية الأتراك من أمهات ليبيات قضت ردحاً من الزمن في مدن إقليم طرابلس ثم استقرت في برقة، لاسيما في مدينتي درنة وبنغازي. فضلاً عن أعداد من الرقيق الذين كانوا نتاج للتجارة الصحراوية التي كانت تمر عبر أراضي الإقليم ، ويبدو ذلك واضحاً في الواحات الجنوبية وبنغازي وطلميثة ودرنة ، فاندمجوا مع سكان هذه المناطق عبر السنين فكونوا جيلاً من الخلاسيين من أمهات زنجيات على الأغلب ، أو من الزنوج الصرحاء [82].

أما العنصر الآخر الذي حتمت عليه الظروف العيش في برقة فقد كان اليهود الذين وجدوا في برقة منذ الاستيطان الفينيقي في القرن السادس قبل الميلاد , وكان وجودهم في الإقليم لأغراض عسكرية فقد منحوا بعض الامتيازات ومنها إقطاعهم مساحات من الأراضي ، مما شجعهم على الاستيطان في برقة وقد أشرنا إلى ذلك في فقرة سابقة [83] . ولكن أغلبيتهم جاءوا في موجات متلاحقة في مطلع القرون الحديثة بعد سقوط الحكم الإسلامي للأندلس وتعرضهم للاضطهاد الديني على يد الاسبان وتيممهم للشواطئ العربية في بلدان المغرب العربي مع المسلمين النازحين ثم نزوحهم بأعداد أخرى بعد خضوع طرابلس لحكم الاسبان ثم لحكم فرسان القديس يوحنا بعد عام 1511[84]. وقدر عددهم في مدينة بنغازي وحدها 2500نسمة في 1817–1817 ولقد كانت مدينة درنة بمينائها الصغير وسهلها الساحلي الضيق مع كونها محمية من هجمات القبائل البدوية محط أنظار المهاجرين المورسكيين الذين قدموا بصحبة عدد قليل من العائلات اليهودية التي أسهمت في نشأة الحركة التجارية من وإلى المدينة ، كما كانو(اليهود) إجمالاً بذور لولادة طبقة برجوازية في ليبيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر سواء في ميناء طرابلس أو في الموانئ الأخرى [85].

عاش أبناء القبائل في برقة حياة بسيطة متدينة تديناً سطحياً يسودها الجهل بأبسط متطلبات التدين ، فهم يجهلون المحتوى العقائدي للإسلام وواجباته الطقسية والأخلاقية جهلاً كلياً , وهم مترخصون في أمور الدين ترخيص ناشئ من هذا الجهل , كما أنهم يجهلون أو يتجاهلون أن صلواتهم اليومية واجب ديني وفرض إجباري لا يمكن الحيد عنه وأن الصلاة عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها ،وهم لا يحجون إلى بيت الله في مكة أسوة ببقية المسلمين [86] والحج لبعض الأماكن في برقة مجزياً عن الحج إلى بيت الله في مكة . أما الصوم وهو من الفرائض الأساسية في الإسلام فعلى الرغم من أن جميع أهل برقة يحرصون على أدائه بإقبال كبير، فيمكن أن يؤديه عنهم ثلاثون شاباً يصوموا يوماً واحداً دفعة واحدة بالنيابة عن المسنين والعجزة وأرباب الأعمال في القبيلة ، وهم مجاهدون متحمسون، والجهاد عندهم مكمل لكل نقائص عباداتهم وهو فرض عين " نصوم ونحارب" أما الزكاة فهي صدقة أو إحسان وليست فريضة على المسلم أداؤها [87] . وهم على العموم على المذهب المالكي , ومؤمنون إيماناً عميقاً بقدرة الله وقضائه وقدره ، بشكل مبهم دون الغوص في ما يجوز وما لا يجوز ودون معرفة حدود المذهب وما يفصله عن المذاهب الإسلامية الأخرى ، لذا اعتقدوا أن هذه المبادئ صنعة أو اختصاص ليست من شأنهم ، بل هي حكراً على العلماء أو الأشراف أو رجال الطرق الصوفية , ومن هنا لنا أن نعرف مقدار توقيرهم واحترامهم لرجال الطرق الصوفية والأشراف ، على الرغم من أن تأثير الطرق الصوفية محدوداً في مجتمع برقة المتنقل أو على الأصح شبه مستقر ، وقد وصفهم بعض الرحالة ومنهم احمد حسنين الذي وصف بدو برقة أنهم كانوا قبيل ظهور الحركة السنوسية سادرين في غاية الضلال, فعمد السنوسي إلى تهذيب طباعهم وتنظيم حياتهم واستنفار طاقاتهم في إطار الزوايا السنوسية [88] .

وقد أضطلع رجل الدين المرابط البسيط الذي لا يحمل تعليماً دينياً ، بالكثير من المهام , مادام يتقن القراءة والكتابة أو يكاد , فهو بمصاف العلماء(في نظر رجال القبائل) وينظر إليه بتقدير وتبجيل ، ومن أبرز مهامه قراءة القرآن وتحفيظه ، وإمامة القبيلة في الصلاة وارقاء المرضى وكتابة الأحجبة والتمائم ، واستنزال المطر بعد امامة الناس لصلاة الاستسقاء والاضطلاع بدور القاضي في المنازعات ، لاسيما إذا كان حيادياً تماماً أي لا ينتمي إلى أحد الطرفين المتنازعين ، فيلزمهما بالحل الذي يراه مناسباً بعد أن يلزمهم بقراءة سورة الفاتحة ,وهو على العموم المكلف بتطبيق الشريعة الذي لا يتبع المطر ولا يسكن في الخيام [89] .

فالمرابط(المتمكن من الشريعة) غالباً ما يكون من أبناء المدن من رجال الطرق الصوفية الكثيرة كالطريقة العيساوية والرفاعية والمدنية والسلامية والزروقية والشاذلية والقادرية وغيرها , وهم بدورهم يقسمون في داخل الطريقة الواحدة إلى فئتين أولهما الرجال الأتقياء الورعون الذين يترفعون عن الألفاظ الشائنة ويظهرون التقوى ولا يقربون الخمر ، المكلفون بأداء الفروض والواجبات الدينية . أما فئة البلهاء أو المخبولون الذين لا يتورعون عن اقتراف أي عمل مهما كان مقرفاً أو غريباً مثل أكل الزجاج والعقارب والأفاعي ، والذين يشلخون وجناتهم بأظفارهم الطويلة المتسخة ، ويعضون ألسنتهم نشوةً , حتى تسيل الدماء من أشداقهم على لحاهم ، وذلك في المسيرات الرمزية المراسيمية التي يسيرون فيها أنصاف عرايا[90] .

تنزع الصوفية في الإسلام إلى النسك والزهد والهدوء والشكلية بعيداً عن العنف الصخب واعتزال الناس والقيام بالنوافل الدينية ، لذا كانت تلك الأفعال مستهجنة عند صوفيي المذهب المالكي, ذلك أن فكرة فناء الأفراد أو اندماجهم في الذات الإلهية اندماجاً كاملا ، عن طريق إقصاء جميع الرغبات الدنيوية وخلع الرداء المادي للجسد , وترديد عبارات بعينها لمرات عديدة بمصاحبة الدفوف أو الموسيقي حتى يصل المردد أو المنشد إلى النشوة الإلهية التي معها يتشنج الجسم المادي ويتلوى ويندفع المنشد , هو أو من يقوم مقامه , بإنفاذ الآلات الحادة في جسمه ، ولا يسمع غير الاسم المقدس, هي فكرة مرفوضة عند البدو المجبولين على البساطة والتلقائية الميالين إلى الابتعاد عن هذه الممارسات ، كما هي مرفوضة عند بعض الشيوخ ومنهم الشيخ السنوسي , الذي دعا إلى العقل في المقام الأول ، وأن درجة الكمال التي تُنشد عند الصوفي, ليس التوحد الروحي والذوبان بالذات الإلهية وإنما التوحد والذوبان في ذات النبي (صلعم) عن طريق التأمل في جوهره واستحضاره في الوجدان والمحاكاة الدائمة لأفعاله والعناية بأقواله والابتعاد عن نواهيه والبراءة من شانئيه والصلاة عليه ، إلى الدرجة التي معها لم يعد المتأمل يسمع سوى أسمه المبارك , ولم يعد يرى بعيني بصيرته سوى الصورة التي يكونها له ، فيغدو الرسول الأعظم مرشده وناصحه الوحيد[91] .

انتشر الفكر الصوفي في أوساط الفقراء وفي ذلك قال بيير لامنس "أن طوائف الدراويش ازدهرت في بيئة متأخرة ثقافياً. . . في الأقاليم التي تسيطر عليها الفوضى"[92] ,وكان حرياً به القول في وسط بيئة من الفاقة والعوز التي يعيش فيها الدراويش في ظل حرمان عميق وسغب متأصل , مما خلق الجو المناسب لهذه الطرق أن تنتشر وتتسع وينتشر معها الفكر الانهزامي الذي كان من شأنه يسحق الهمة والأنفة داخل النفس ، لذلك وجد الإنسان في برقة لاسيما في أجواء المدينة أو مجتمع المرابطين في البادية ، نفسه منساقاً وراء هذه الحركات لتبرير حالة الذل التي يعيشها ، دون معرفة الحدود التي تفصلها عن الزهد والتواضع وهما ميزتان مفضلتان في التربية الإسلامية ، فأكثروا الحديث عن الفقراء والمحرومين مؤكدين في توجيهاتهم وأذكارهم وأورادهم أن الجهل والفقر والظلم والجوع منّة أو هبة من الله . . . !، والعبد المقهور في دنياه ستكون الجنة مأواه لا محالة ,وأن الشيخ الولي هو الدليل المرشد لكل تائه ليأخذ بيده إلى النعيم الأبدي , ومن ليس له شيخ يرتبط به ويحظى ببركاته سيكون خاسر في الدنيا والآخرة وبالتالي فعلى مرابطي الصدقة والعبيد أن لا يسعون إلى الخلاص مما هم فيه , طالما أن مآلهم الجنة , و بالتالي على الشعوب التي ترزح تحت ظلم المستعمرين أن لا تسعى إلى الانعتاق ، وقد وجد الحكام العثمانيون والحكام المحليون في الصوفية وسيلة لتبرير ظلمهم وإضعاف المقاومة الشعبية ضدهم [93]. لذلك توطدت العلاقة بين هؤلاء وشيوخ الطرق الصوفية الذين رأوا في حاجة الحكام إليهم رفعاً لشانهم ، فاتسع نفوذهم وقست شوكتهم ، بسبب أن هؤلاء الحكام لم يكونوا أرفع مستوى ثقافي من الدهماء ، لذلك كانوا يهابون (أولياء الله) ويخشون غضبهم بل وفي أحيان كثيرة يلجئون إليهم لتبرير ضعفهم وليأخذوا منهم البركة وقراءة ما يخبأه لهم القدر , وأن يدعوا الله أن يوفقهم ويكشف عنهم الضر, فعملوا على تقريبهم ورفعوا من شأنهم وكثر عددهم واتسعت زواياهم فأصبحوا ملاذ الشعب ضد الحكام وجباتهم القساة , وملاذ أولئك المتجبرين ضد خطاياهم وما يخبئه لهم القدر[94] .

برقة في الاستراتيجية العثمانية : الأوضاع السياسية والإدارية في ظل الحكم القرمانلي (*)

تمكن مراد أغا القائد العثماني من انتزاع ميناء طرابلس وطرد منها فرسان القديس يوحنا عام 1551. ومنذ ذلك الوقت أصبحت طرابلس الولاية العثمانية الثانية في المغرب العربي بعد الجزائر، وأصدر السلطان العثماني سليمان القانوني فرماناً بتعيين مراد أغا والياً عليها[95] ، ومن ثم انتدب القائد البحري درغوث باشا والياً عليها بعد وفاة مراد باشا، الذي نجح في توسيع السيادة العثمانية لتشمل سواحل طرابلس بأكملها. وخضعت طرابلس للحكم العثماني مباشرة أو بالإنابة حتى 1911 عندما اقتطعت بالغزو الإيطالي. وخلال هذه الفترة، انصب اهتمام العثمانيين على النواحي العسكرية، واقتصر نفوذهم على المنطقة الساحلية فقط [96]. و سعى درغوث باشا في مستهل إدارته لطرابلس إلى فرض الهيمنة العثمانية على برقة إلا أن جهوده لم تكن ناجعة، وبقيت أراضي إقليم برقة خارج السيطرة العثمانية، واستمرت تحت سيطرة زعماء القبائل والحكام المحليين حتى 1638[97] .

ويعود سبب تأخر إلحاق الإقليم بالحكم العثماني إلى بعده عن خطر فرسان القديس يوحنا والإسبان ، الذي تركز في غرب البحر المتوسط ، مما جعله لا يشكل أية أهمية استراتيجية كبيرة بالنسبة للدولة العثمانية. كما أن ولاة طرابلس سيطر عليهم الاعتقاد بتبعيته لمصر فلم يولوا اهتماما بمسألة ضمه حتى وقت متأخر. وكانت الدولة العثمانية من جانبها تدرك هذين الأمرين، فضلاً عن علمها بتواضع المزايا الاقتصادية للإقليم وخلوه من الكثافة السكانية العالية باستثناء القبائل المتجمعة حول مصادر المياه في المناطق الساحلية والواحات وبعض تمركزات في ما صار يعرف بالمدن [98] .

فكان وقوع الإقليم بين إقليمين مهمين هما مصر وطرابلس جعله محمياً من الجانبين بمساحات شاسعة من الصحاري الخالية من السكان , ولكن ولاة طرابلس هم من نبه الدولة العثمانية إلى أهمية الإقليم الاستراتيجية و المميزات الاقتصادية والسياسية ، في الوقت الذي كان فيه السلطان مراد الرابع ساعيا إلى إعادة هيبة الدولة العثمانية وتكريس المركزية فيها وتوسيع دائرة أملاكها . وتأسيسا على ما تقدم جهز محمد باشا الصاقزلي والي طرابلس المتميز حملة عسكرية قوية في عام 1638 بغية ضم إقليم برقة للسيادة العثمانية. وأسندت قيادة الحملة إلى الوالي الكفوء عسكرياً عثمان الصاقزلي [99]. وعلى عكس التوقعات واجهت الحملة مقاومة من قبل الأهالي في بنغازي ودرنة وكافة المدن الرئيسية ، وانخرط عدد كبير من المتطوعين من رجال القبائل في المقاومة لدرجة جعلت قائد الحملة يطلب دعماً عسكرياً من والي طرابلس , ونظرا لعدم التكافؤ بين الكفتين نجحت القوات العثمانية في الاستيلاء على بنغازي و درنـة[100].

وبينما كان الرقيق المسيحيون منهمكين في بناء قلعة بنغازي التي استمر البناء بها عاماً كاملاً ، كان الفرسان العثمانيون يجوبون البراري ويرغمون الأهالي على دفع الجزية (الأعشار), وبعد اكتمال بناء القلعة سلحت بالمدفعية وتركت بها حامية من الجند تعداها مائه من الجند , وتوجه عثمان بك على رأس جيشه لفتح واحتي أوجلة وجالو اللتين كانتا حتى هذا الوقت خارج السيطرة العثمانية , لذا كانت من أولى مهام عثمان الصاقزلي الذي صار أول حاكم على برقة هي استكمال السيطرة العثمانية على الدواخل البرقاوية، والقضاء على أحمد عبد الهادي (الأمير سالم) حاكم أوجلة، ونزع سلاح رجال القبائل. ويبدو أن المقاومة في المناطق الداخلية كانت أشد وبالا على العثمانيين نظرا لممارسة القبائل حرب العصابات واعتمادهم على تضاريس مناطقهم، لاسيما الدروب والمسالك التي يجهلها العثمانيون[101] ولم ينجح الأخيرون في دخول الواحتين إلا بوسائل الإغراء والخيانة , وبعد إحكام السيطرة عليهما سلبت الواحة بطريقة تعف عنها النفس الإسلامية القويمة " نهبت حتى أقراط الصبيان من آذانهم ، واستمر السلب والنهب حتى لم يعد بالبلدة لا ذهب ولا فضة وجمع ما فيها من رقيق" وبعد استكمال نهب البلدة عاد عثمان بك ظافراً بالأسلاب والعبيد[102] .

فكان الفتح العثماني لبرقة كارثة حلت بها فقد بلغ التراجع الوظيفي بمؤسسات الدولة العثمانية منذ منتصف القرن السابع عشر مداه ، فلا توجد وشائج من أي نوع بين الداخلين الجدد تحت راية الدولة العثمانية والقائمين على الإدارة سوى المزيد من الضرائب واستحلاب الفوائض الاقتصادية الناجمة عن الزراعة والرعي أو التجارة الصحراوية أو من بساتين التمور في الواحات ، فكان القائمقام العثماني في أوجلة وجالو ، وهو منصب سيادي إداري عثماني يمثل والي طرابلس في الواحات ، تتمثل مهمته فيها في الإشراف على جهود جباية الضرائب المفروضة على جالو و أوجلة فحسب [103] .

وأدخلت الدولة العثمانية إلى طرابلس وبرقة نظام الإقطاع العسكري الذي كان أحد أهم مظاهر العسكرية العثمانية في عصر الانتصارات، ويقوم على منح مساحات من الأراضي على رجال سلاح الفرسان (السباهية)(*) وغيرهم ، مقابل التزام هؤلاء بفروض عسكرية وضرائبية تقدم إلى الدولة في أوقات السلم والحرب، كل على وفق رتبته أو الخدمة التي كان عليه تقديمها. وطبقا لهذا لنظام جرى إحصاء المدن والقرى والقصبات في إقليم برقة، وقسمت الأراضي إلى متصرفيات وأقضية ونواح، ثم إلى مقاطعات أصغر فأصغر سميت: "خاصات"، و"زعامات"، و "تيمارات". وجرى توزيع عدد كبير منها على الشخصيات القيادية في سلاح الفرسان وفى الأسطول وبعض قيادات الانكشارية [104] .

وكان الديوان بجانب الوالي مظهراً من مظاهر الحكم العثماني، وهو مؤسسة إدارية مستقلة لمساعدة الوالي في شئون الإدارة. وتألف في ولاية طرابلس من رئيس وعدد من الإداريين كالمكتوبجى والدفتردار والقاضي، بينما مثل قادة الجند أحد أضلاع مثلث الحكم العثماني وجاءوا في المرتبة الثالثة بعد الوالي والديوان. وقد اعتادت هذه الفرق على التنافس فيما بينها مما أضعف السلطة العثمانية ممثلة في شخص الوالي، الذي تدنت هيبته مقابل اتساع سلطة قادة الجند وأغوات الإنكشارية ومن ورائهم نفوذ الكراغلة ، الأمر الذي أسهم في عدم الاستقرار وتفاقم الصراعات الداخلية وانصراف الجميع لهدف واحد هو الإثراء على حساب السكان المحليين [105] .

وكان توزيع أراضي برقة على ضباط وجنود الجيش العثماني بمختلف قطاعاتهم سبب حالة تذمر وسخط هائلين بين أوساط الأهالي، وسبباً مباشراً في تحريك نوازع الحرية ورفض الانصياع للسلطة المركزية ونشوب ثورات محلية لم تقو السلطة على مواجهتها على نحو دائم [2]. فقد سأم البرقاويون الحكم العثماني الظالم وحكامه الجشعين ففي عام 1646أي بعد فترة قصيرة من

دخولهم برقة ثار الأهالي في بنغازي ودرنة بمباركة من المورسكيين, فانسحب العثمانيون منها وفجروا أسوارها ثم أعادوا احتلالها مرة أخرى بمساعدة بدو برقة، بقيادة عثمان بك الذي أعدم حاكم درنة حمودة تاغرين وظل الإقليم بعيداً عن الاستقرار [106]،ولما كان مرتبطاً بإقليم طرابلس فأن عدم الاستقرار كان مدعاة لظهور شخصية قوية لها من الدهاء والحيلة وقوة الشكيمة تتمتع بقبول العامة بإمكانها فرض سيطرتها على البلاد وشكم تمردات القولوغلية والقبائل والقضاء على صخب الانكشارية وتحييد قناصل الدول الأجنبية عن التدخل في شؤون الولاية ، فبدا أحمد القرمانلي إنه الشخص الذي ساقته الأقدار لإنقاذ البلاد مما هي فيه فلم يتوان عن اغتنام هذه الفرصة وكان نجاحه مذهلاً إذ تمكن من فرض الأمن والنظام في وقت وجيز وتوحيد البلاد، وتأسيس حكم بقي في أسرته ما يزيد عن قرن من الزمان[107] .

ينتمي أحمد القرمانلى إلى عائلة عثمانية الأصل جاءت في وقت مبكر إلى طرابلس ، ووجد نفسه معنيا بالصراع السياسي بين أطراف عديدة واستطاع أن يفرض نفسه حاكما وحيدا للولاية، ولم يشأ أن يضع نفسه في مواجهة الباب العالي، بل كان بحاجة إلى الشرعية التي يمنحه إياها رضا السلطان عنه، وأدى الأهالي هذا الدور بكتابتهم العرائض التي طلبوا فيها من الدولة العثمانية تنصيبه والياً عليهم، ولم يجد الباب العالي بُداً من الامتثال لطلبهم فأصدر فرماناً بتعينه والياً على إيالة طرابلس ومنحه لقب باشا في عام 1711 [108]. وحكم حتى وفاته عام 1745، وتقَّرب في هذه الفترة من الأهالي ومن الجند ورؤساء البحر، وانبرى بشكل تدريجي في مواجهة عناصر الفوضى في طرابلس وفزان وبرقة , ونجح في القضاء على حركات التمرد في ترهونة ومسلاتة والجبل الغربي، واعتمد في ذلك على مساندة أخيه شعبان بك. وشهدت طرابلس في فترة حكمه استقلالاً كاملاً في السياسة الاقتصادية والإدارية الداخلية، وبدت طرابلس الغرب دولة مستقلة تماماً في السياسة الخارجية. واكتفت الدولة العثمانية بإعلان الوالي تبعيته لها بعد أن رأت نجاحه في إعادة توحيد البلاد بأقسامها الثلاثة بما في ذلك برقة، وكانت مكافأتها له أن تركت حكم الولاية وراثيا في أسرته[109].

أدرك أحمد باشا أهمية إقليم برقة الاقتصادية والسياسية في توطيد سلطانه وإعطائه فسحة جغرافية هائلة رفعته إلى مرتبة الحكام الكبار واقتصادياً لكونه متمماً للازدهار الاقتصادي الذي بدأ يجني ثماره في طرابلس. فاعتمد على أخيه ليكون نائبه هناك، ولم يرض بغير صهره ليكون حاكماً على مدينة درنة. وفي الواقع، بدا الحكم القرمانلي في برقة أكثر كفاءة من الحكم العثماني المباشر، وكان مقنعاً للأهالي بما فيهم الكراغلة، واختفت الصراعات القبلية طوال عهده. بسبب عدم اللجوء إلى مبدأ التفرقة بين القبائل لضمان السيطرة عليهم وهي سياسة تقليدية للدولة العثمانية في تعاملها مع الشعوب المغلوبة ، وفضل مراعاة العدل بين القبائل ولو على حساب بطانته من الكراغلة، مما عزز الشعور لدى هؤلاء بأنه لا يعتمد سياسة التمييز لصالح جماعة أو فئة، لذا رأت القبائل النزاعة دائما إلى النفور من السلطة المركزية الميالة إلى التمرد والهجرة من الإقليم ، إيثار الهدوء والشعور بالرضا ، ريثما تستجد الظروف التي تهيئ لها العيش وفق قوانينها وعاداتها وأعرافها،وربما ساعدتها في ذلك طبيعتها الرعوية المتنقلة[110] .

بيد أن تلك المميزات لم تنه الأفعال الانفصالية في برقة ، ففي عام 1715 خرج فيها علي بن عبد الله بن عبد النبي الصنهاجي الملقب أبي قيلة ، وادعى المهدوية وأنه جاء لتحرير الناس وتخليص العالم من شروره شأنه في ذلك شأن كل مدعي بالمهدوية . بيد أنه ما أن تمترس في مدينة المرج وانطلت حيله وكذبه على أهالي برقة البسطاء حتى تمادى في الظلم والاعتداء على حرمات السذج من الناس ، وقاد جماعته إلى الهجوم على بنغازي فتمكن من طرد حاكمها القرمانلي ثم سار إلى الغرب لإخضاع طرابلس والقضاء على الحكم القرمانلي فيها , وعند خليج سرت التقى بالجيش القرمانلي يقوده أحمد باشا فتمكن هذا الأخير من قتل المدعي , ثم قبل ولاء القبائل البرقاوية التي كانت سائرة في ركابه [111] .

وفي عام 1719 استغل إبراهيم التریاقي الذي كان قائداً في جيش شعبان بك حاكم برقة ، بعد المسافة عن طرابلس وصعوبة المواصلات وبدائيتها في القيام بمحاولة للاستقلال بإقليم برقة، ويبدو أنه قطع شوطاً بعيداً في ذلك الاتجاه، بعد أن انضم إليه عدد من الجند وبعض الأهالي، لكن أحمد باشا كان حازماً إذ جهز حملة عسكرية ضخمة أسند قيادتها إلى أخيه شعبان بك الذي وُفق في القضاء على الحركة الانفصالية وطرد المتمرد إلى مصر[112]. وشهد إقليم برقة خلال تلك الفترة رخاء اقتصادياً بازدهار تجارة القوافل الصحراوية إلى السودان الأوسط والشرقي، وأضحت مدينة بنغازي لا تختلف من حيث الأهمية عن طرابلس بعد أن صارت بؤرة لشبكة واسعة من الطرق الصحراوية ، ولم تقل الحركة التجارية في ميناءها عن ميناء طرابلس[113].

ولم يكن محمد باشا الذي أعقب أبيه عام 1745، بمستوى سلفه في المقدرة الإدارية والحنكة السياسية، بسبب صغر سنه عند توليته الحكم ، وتزامن ذلك مع الجفاف الذي أصاب البلاد وقد تضرر إقليم برقة أكثر من غيره وهلكت الماشية ومات الناس من شدة الجدب وترك الرعايا الأوربيون بنغازي ، وقلت الإتاوات الناجمة عن نشاط الجهاد البحري نتيجة ظهور أساطيل قوية في البحر المتوسط. فأطلت الفوضى برأسها مرة أخرى ، وانتشرت القلاقل وازداد الصراع بين أبناء البيت القرمانلي وتفاقم الارتباك في السياسة الخارجية[114].

اتسم الحكم القرمانلي بالصراع الأسري داخل الأسرة القرمانلية الإقطاعية التي لا يعدو الصراع داخلها عن كونه امتداد للصراعات داخل الأسرة الحاكمة العثمانية. وكان إقليم برقة القصي البعيد عن السيطرة القرمانلية بطبيعته الاجتماعية البدوية المتقلبة المكان المناسب لتمرد الأمراء القرمانليين ضد إخوانهم أو آبائهم ، وفي نهاية كانت قبائل برقة هي التي تتحمل تبعات تمردات هؤلاء ، فكانت فترة حكم يوسف باشا الحلقة الأخيرة في سلسلة الصراعات داخل الأسرة . فقد واجه هذا لأخير بعد اغتصابه للحكم في طرابلس من أخيه أحمد باشا حركة تمرد عاتية دبرها الأخ المخلوع ، المتزوج من إحدى بنات قبيلة الجوازي الواسعة النفوذ في بنغازي ، والذي لم يخف طموحاته بالعودة إلى الحكم، فتظاهر بقبول تعيينه حاكماً لإقليم برقة ، فشد الرحال إليها عن طريق البحر خوفاً من غدر أخيه ، ولكنه بدلاً من مواصلة السفر إليها جنحت به السفينة إلى مالطا ومنها إلى تونس للاستعانة بالباي في استرداد الحكم في طرابلس . وهناك قابل القنصل الأمريكي في نهاية عام 1801وكان الأسطول الأمريكي في حالة حرب مع يوسف القرمانلي، فأبدى الأمريكان استعدادهم لمساعدته ضد أخيه وقفل راجعاً إلى مالطة [115] .

واستشعر يوسف باشا بالخطر من تحرك أخيه فعرض عليه مجدداً منصب حاكم برقة ريثما يتمكن من القضاء عليه . وأدرك الأمريكان الخطة بإجهاض خطة الباشا بإغراء أحمد بالمال على يبقى في مالطة وأن يتذرع بالصبر[116] . ولكنه خلافاً لرغبتهم، وكان همهم تأميم مصالح الولايات المتحدة في البحر المتوسط ، أبحر من مالطة إلى برقة على ظهر سفينة بريطانية أملاً في إثارة القبائل ضد أخيه، فبلغ درنة في عام 1802 ، ولكن كان يوسف له بالمرصاد فاحتجز زوجته وأطفاله ، فأثار بذلك غضب أصهاره من القبيلة المذكورة ، ولكن أحمد باشا غادر المدينة إلى مصر , ثم عاد إليها عن طريق البر جامعاً في طريقة عدد من المرتزقة بينهم مصريون , وكانت الخطة أن يهاجم أحمد باشا درنة عن طريق البر فيما يقوم الأسطول الأمريكي بقصف المدينة من البحر , وبعد الاستيلاء على المدينة يواصل الزحف إلى طرابلس ، ولما يتربع على الحكم يقوم بدفع كل الأموال التي أنفقها الأمريكان على الحملة مع بنود أخرى تخص الدول الأخرى[117] .

وفي 8 آذار(مارس) 1805 بدأ الزحف على درنة فكان الاستيلاء عليها بمساعدة الأمريكان ضربة حظ ، ذلك أن يوسف القرمانلي عزز القوات المرابطة فيها بـ 800 من جنوده ، فكانت في زحفها غير بعيدة عن المدينة . على أية حال طالب أحمد باشا ، الذي كان ممقوتاً من السكان المحليين لأنه احتل مدينتهم بمساعدة (الكفار)، الاعتراف به حاكماً على القسم الشرقي من الإيالة(برقة). وبدلاً من الزحف إلى طرابلس ، كان الجيش الطرابلسي يحكم الحصار على مدينة درنة بينما كانت المفاوضات بين الأمريكان ويوسف القرمانلي جارية لتوقيع الصلح بين الطرفين على أن يتم إجلاء الجنود المسيحيين من درنة وأن يمنح جنود أحمد والسكان الذين مالئوهم عفواً على أن يتحمل السكان إتاوة إضافية لقاء الأضرار التي ألحقها احتلال أحمد باشا للمدينة . ولما جلا الأمريكان عن درنة أخذوا أحمد الذي لم يعدوا بحاجة لخدماته ، معهم إلى مصر حيث توفي هناك في عام 1811[118] .

وظلت برقة في حالة تمرد بسبب التعسف الضرائبي ، وعدم نزوع القبائل البرقاوية إلى الهدوء نتيجة لذلك ، لذا عين يوسف باشا ابنه الأكبر لتأديب هذه القبائل ، وكان يوسف بغدره وظلمه , حيث صفى غيلة أخاه الأكبر حسن وعق والديه وطرد أخاه الآخر ولي العهد ، حمامة وادعة إلى جانب أبنه البكر محمد، الذي ما أن وصل طرابلس منتصراً على القبائل البرقاوية حتى أجهز على أبيه بخنجر كان بيده على أثر شجار دار بينهما , بيد أن الأب اتقى ضربته بأحد خدمه ، وبدلاً من أن يردع الولد الغادر بعقوبة رادعة , كافئه بتعيينه حاكماً على إقليم برقة النائي ، فما أن وصل إلى هناك حتى تزعم المتذمرين من حكم والده من قبائل الجوازي وأولاد علي ليعلن الثورة عليه , وهنا أدرك يوسف القرمانلي أنه هيأ الفرصة لابنه للتمرد عليه [119].

ولمواجهة هذا الموقف فقد جهز يوسف القرمانلي جيشاً لمواجهة الابن المتمرد وأسند قيادته إلى ابنه الآخر أحمد الذي كان أثبت جناناً من أخيه ولا يقل عنه قسوة . ولم يقدر للأخوين الخصمين أن يتلاقيا, فكلما اقترب أحمد انسحب محمد بقدر تقدم أخيه باتجاه مصر مع أسرته تاركاً برقة تحت رحمة أخيه ففعل بقبائلها الأفاعيل ، لاسيما قبيلة الجوازي ، التي استدرجها إلى قصره وعاث بأبنائها قتلاً وصادر مواشيها ثم طردها إلى مصر [120] .

ويمكن القول أن الصراع الأسري في العائلة القرمانلية وانعكاساته أو امتداداته إلى برقة وما رافقه من التدخل الأجنبي أقنع حكومة الباب العالي بعدم جدوى حكم العائلة القرمانلية وضرورة التخلص منها , لاسيما أن الأحداث التي وقعت من جراء هذا الصراع غالباً ما يمتد إلى قبائل برقة التي تجد أنفسها مدفوعة إلى الاشتراك فيه لمساندة هذا الطرف أو ذاك بحكم مصالحها أو عصبيتها أو استجابة لنداء يوجهه إليها أحد الأطراف المتصارعة ، مما جر عليها أن تدفع ضريبة لسداد دين أو تحمل تكلفة مادية أو أن تطرد بشكل جماعي من مرابعها ، فضلاً عن الدماء التي تذهب سدى أثناء الصراع وليس مهماً من يكون المنتصر، المهم أن تدفع هذه القبائل فاتورة الصراع العائلي الذي من شأنه توسعة دائرة البغضاء والكراهية بينها[121] . وعلى الرغم من أن الحكم القرمانلي كان حكماً إقطاعياً جشعاً فاسداً وظالماً ، إلا أنهم حكموا ولاية طرابلس الغرب بأقاليمها الثلاثة باستقلالية تامة عن الدولة العثمانية ، بعد أن بالغوا في إخضاع تلك الأقاليم واستغلالها بنهب إقطاعي وحشي، اجتهدوا ببقائها موحدة، وبذلك أرسو أسس الدولة الليبية الحديثة التي لم يصنعها الاستعمار الغربي المعاصر كما هي الحال في بعض الدول العربية الأخرى .

التقسيمات الإدارية في برقة في فترة الحكم القرمانلي

قسم العثمانيون امبراطوريتهم الشاسعة إلى مقاطعات أو أقاليم أو وحدات إدارية كبيرة فكانت ولاية طرابلس الغرب مكونة من ثلاثة أقاليم وهي طرابلس وبرقة وفزان وهي في الوقت نفسه ألوية تنقسم بدورها إلى مجموعة من الأقضية والنواحي، ولا يوجد ذكر للقرى أو القصبات في ذلك التقسيم في وقت مبكر. فعينوا لكل لواء متصرف لإدارته ، أما الأقضية فيديرها قائمقامون ، ويدير مدراء النواحي النواحي المكلفين بإدارتها, وجميع هذه الوظائف هي رتب إقطاعية عسكرية من صلب النظام الإقطاعي الذي قامت على أسسه الدولة العثمانية[122]. وعلى وفق هذا التقسيم الذي استمر حتى نهاية العهد القرمانلي كانت بنغازي أحد ألوية إيالة(ولاية)طرابلس الغرب، ويتبعها إدارياً أربعة أقضية وهي، بنغازي ودرنة والمرج وجالو– أوجلة وتتبع كل منها عدد من النواحي ، أما المحلات فكل مركز قضاء يعد محلة واحدة سوى مدينة بنغازي ففيها محلتان وحسب [123] .

تعد بنغازي من أهم المراكز الحضارية في إقليم برقه، ويرجع أنشاؤها إلى عهد المستوطنين الإغريق المنحدرين من قوريني فيما قبل عام 515 ق.م. وأطلق عليها اسم يوسبريدس. وفي عام 247 ق.م. تغير اسمها فصارت تعرف باسم "برنيق" Berenich تيمنا بزوجة بطليموس الثالث ملك مصر[124]. واستمرت تحمل هذا الاسم حتى بداية القرن الخامس عشر، عندها اختفى اسم برنيق وحل محله اسم بني غازي نسبة إلى المرابط الشهير سيدي غازي المدفون في مقبرة سيدي خريبيش بذات المدينة. ثم تحولت تدريجياً كنوع من الاختصار من بني غازي إلى بنغازي. وقد شهدت المدينة مع بداية القرن الخامس عشر تكون أول مجتمع مدني حديث، نتيجة لتوافد الهجرات البشرية من إقليم طرابلس . كما ساهمت العائلات الطرابلسية في تنشيط الحركة التجارية مع بقية المراكز التجارية النشطة الأخرى , كالمراكز الإيطالية وبلاد الليبانتو ،لاسيما تجارة الملح التي كان النشاط الاقتصادي الأول الذي يسود المدينة[125] .

لقد وصف لنا محمد بن الطيب الفاسي في رحلته عبر ليبيا بين عامي 1727–1728 بنغازي بقوله "وابن غازي مرسى حسنة بسفح الجبل الأخضر بينها وبين سلوك [مسيرة] يوم , وفيها عامل وعسكر لصاحب طرابلس ، وفي تلك المرسى تصب أودية السمن و العسل واللحم والودك من الجبل الأخضر الذي لا أخصب ولا أكثر منه أداماً ,بحيث تكتفي منه أهل تلك النواحي وتحمل منه السفن إلى طرابلس وجربة وما بإزائهما من البلدان أضعافاً مضاعفة ، ومن هذا الجبل أغلب أدامهم ولحمانهم مع رخص الأسعار الرخص الخارج عن الحد , بحيث تشتري القناطير من ذلك بالثمن التافه من بز أو عروض أو غير ذلك "[126].

واكتسبت بنغازي مكانة متقدمة بين مدن الإقليم فزاد عمرانها وتكاثر سكانها وعمرت أسواقها وراجت بضائعها. وبلغ عدد سكانها إبان فترة نهاية الحكم القرمانلي ما يقرب من 15 ألف نسمة وهو عدد لا بأس به قياسا بمدن أخرى قريبة أو بعيدة على ساحل البحر المتوسط ، بينهم حوالي2000 نسمة خليط من الأوربيين واليونانيين والإيطاليين وحوالي 3000 يهودي، أما الأغلبية منهم فكانوا من المسلمين ذوي أصول عربية من مصراتة وتونس وكريت ، لذا ارتبطت المدينة بصلات تجارية مع الإسكندرية وطرابلس ومالطا وتونس أوثق من تلك مع دواخل برقة , فضلاً عن ارتباطها بتجارة الصحراء, ذلك أن ضعف الروابط الاقتصادية والسياسية مع الدواخل القبلية سمة مميزة لكل المراكز الحضرية في ولاية طرابلس . كما وجد بين سكانها عدد من الأفارقة الذين تجمعوا في حي خاص بهم في الزيريعية (الصابري) [127].

و تميزت بنغازي بمرافقها العامة المتمثلة في مبنى دار البلدية الذي يتكون من ثلاثة طوابق , والسوق الرئيسي بوسط المدينة، كما كانت تعقد في المدينة أسواق كبيرة في الساحات العامة لبيع الحيوانات والحبوب، كذلك أنشئت ضاحية البركة التي شيدت بها ثكنات عسكرية، وقصر الحاكم، ومستشفى عسكري، ومساكن للضباط بدلاً من المباني المكتظة بالقلعة القديمة عند الميناء، فضلاً عن مبنى آخر للجنود وحرس الجمارك في جليانة. وبالقرب من تلك المباني يوجد مبنى البريد والتلغراف الذي يعد حلقة الاتصال الوحيدة مع طرابلس. كما مد أول خط سكة حديد بطول 6 كم، يربط بين الميناء ومحاجر سيدي داوود [128]. كما وجد بالمدينة عديد من المساجد وأكبرها المسجد العتيق الذي يوجد بميدان البلدية. كما شيدت أول كنيسة مسيحية أقامتها إرسالية الفرنسيسكان وبجانبها مدرسة لتعليم البنات، وكنيس يهودي شيد من قبل راحمين جارجيون بشارع المهدوي [129] .

أما الميناء فيعد مرسى جيد بالصيف، لكنه في حالة العواصف لا يتسم بالأمان، لذلك فإن السفن تتفادى بنغازي في الشتاء. وقد أثر هذا الوضع في قوة النشاط الاقتصادي إلى حد ما نتيجة لضعف أداء الميناء في فصل الشتاء. ورغم محاولات تعديل وضع الميناء وتهيئته للعمل الدائم مثل إنشاء منارة لهداية السفن، فإن ذلك لم يكن تطويراً يجعل الميناء قادراً على الوفاء بالاحتياجات الاقتصادية للسكان. كما وجد بالميناء مركز للجمارك، وسفينة حربية تقوم بمراقبة الشواطئ لمنع التهريب وطرد صائدي الاسفنج غير المرخصين [130].

وكانت شوارع المدينة عريضة بيد أنها غير معبدة ، باستثناء الطريق الوحيدة المعبدة التي تربط بين شاطئ البحر وميدان البلدية والسوق والقسم المحاذي لقصر الحاكم، حيث تقع الدوائر الحكومية ومراكز الإدارة والسجن وقسم من الحامية التركية. كما كانت هناك طرق معبدة تؤدي إلى مقر إقامة القنصلين البريطاني والفرنسي. وبلغت البيوت السكنية حوالي 1500منزل مشيدة من الحجارة وكثير منها كان يتألف من طابقين. فضلاً عن ستين مسكنا بالحي الأوربي والتي تميزت بمتانة بنائها وتوفرت في معظمها وسائل الراحة ، وعلى العموم اتصف المستوى المعيشي بين السكان بعدم التباين الكبير ، حيث لا يوجد ثراء فاحش مقابل فقر مدقع . وأبرز مظاهر التقدم في المدينة تجلى في الميدان الصحي، حيث أن الأتراك عينوا طبيباً ألمانياً يتولى مهمة الأشراف الصحي في المدينة. وبفضل الرقابة الصحية أصبحت المدينة من أرقى مدن شمال أفريقيا، وكان الطبيب يتولى الأمور المتعلقة بتنظيف الشوارع وإزالة ما من شأنه مضايقة الجمهور فيها ، وفحص جثث الموتى قبل الدفن ، وفحص المواشي قبل الذبح [131] .

أما درنة التي استمدت اسمها من دارنس Darnis وهو الاسم البطلمي الذي أطلقه عليها البطالمة عندما استقروا فيها ، هي المدينة الثانية في إقليم برقة ، وتقع بين الحافة الشرقية للجبل الأخضر وساحل البحر على مصب الوادي المسمى باسمها الذي يشطرها إلى شطرين . فذكرها محمد بن الطيب الفاسي في رحلته آنفة الذكر بقوله"درنة مدينة على ساحل البحر بينها وبين التميمي مسيرة يوم ونصف من غربيه . وكانت خالية منذ أزمان إلى أن عمرها أهل الأندلس [المورسكيون]سنة ألف وأربعين[في حدود الربع الأول من القرن السابع عشر] ولم يزالوا بها إلى أن بطروا ، فأنشبوا الحرب بينهم وبين أمير طرابلس , فأخرجهم منها صاغرين بعد وقعة قتل منهم مئون من أشرافهم ، وهي الآن في طاعته وفيها عامله . . . . ومرسى هذه المدينة عجيبة تنزل بها السفن الواردة من الإسكندرية ومن طرابلس ومن بر الروم ،لاسيما جزيرة كنديه[كريت] فأن بينها وبين درنة مسيرة يوم في البحر لأنها مقابلتها . والمعاش في هذه المدينة متيسر كثيراً لجمعها بين الحاضرة والبادية"[132] .

اشتهرت المدينة بعلاقاتها التجارية لاسيما مع مالطا وكريت والإسكندرية ، وكانت تصدر الشمع والأسفنج والحيوانات الحية كالأبقار والأغنام والإبل ومنتجاتها والخيول والمنسوجات التي تصنع في أنوال المدينة، وتسورد المنسوجات والملابس والحلي النسائية . وقد قدر عدد سكانها في منتصف القرن التاسع عشر بنحو4,500 نسمة [133]. وهي منذ أن خضعت للحكم العثماني قضاء تابع للواء بنغازي وألحق بها ناحيتان حتى العام 1842 ففي ذلك العام استحدثت ناحية جديدة فأصبح عددها ثلاث نواحي ، ثم عادت بعد 1865 ناحية واحدة ، وهي في كل هذا الوقت كانت مدينة بمحلة واحدة [134] (*) .

وشهدت المدينة تطوراً عمرانياً، تمثل في إنشاء مبنى الحاكم التركي و هو المقر الرئيسي للحكم الإدارة, وثكنات إقامة جنود الحامية التركية ، ومبنى البلدية الذي كانت مهمتها الإشراف على سوق الحيوانات والغلال ومراقبة السلع ونظافة الميادين والطرقات وإنارة بعض الشوارع بمصابيح تعمل بالكيروسين. كما تخللت المدينة عدة شوارع مرصوفة بالحجر وبيوت ذات أبواب مقوسة، تخترقها أسواق مسقوفة بالخشب تباع فيها أنواع من المواد الغذائية والأغطية والأصواف، وقد وجد في الجانب الغربي من المدينة مبنى للبريد والبرق الذي كان يشرف عليه الألمان، ومطحنة للغلال تدار بواسطة الرياح[135]. أما الميناء فكان قليل الأهمية نظرا لصغر مساحته وعدم وجود حماية طبيعية تحمي السفن من خطر التيارات البحرية والرياح العاصفة.

وعلى الرغم من هذا زودٍ بفنار يصل ارتفاعه إلى28متراً عن سطح البحر ويعمل هذا الفنار على إرشاد السفن، فضلاً عن مركز للجمارك ، ومدرسة للصبيان لتعلم اللغة العربية ومبادئ الحساب [136].

أما المدينة الأخرى فهي مدينة المرج التي تقع وسط السهل المسمى باسمها في إقليم الجبل الأخضر وتتميز أرضها بالخصوبة مما أدى إلى ازدهار زراعة الحبوب بالدرجة الأولى والأشجار المثمرة. ولعل ذلك يعود إلى ارتفاع معدلات نسب سقوط الأمطار في فصل الشتاء .وأنشئت المدينة في القرن السادس قبل الميلاد من قبل الإغريق، وارتفع شانها حتى أصبحت ندا لمدينة قوريني. وفتحها المسلمون صلحاً في سنة21 للهجرة[137] . واهتمت بها الإدارة العثمانية في عام 1842م عندما أنشئت فيها قلعة تركية لتكون مقرا لجباة الضرائب الحكوميين، وازدادت أهميتها فيما بعد خاصة بعد إنشاء بعض الزوايا بها مما دفع الحكومة العثمانية، إلى التوسع في تشييد المباني الحكومية والسكنية وبعض المتاجر، وأصبحت مركزاً لفئات التجار والمشتغلين بالتجارة من المصريين واليهود والكريتيين وكان للتجار اليهود مركز متميز فيها. ويبدو أن استيطان اليهود فيها نال من استحسان الإدارة العثمانية فضلاً عن الحركة السنوسية بعد أن توطد مركزها فيها وذلك لتنشيط الحركة التجارية [138].

أما أوجلة فقد اشتهرت بأنها مدينة تاريخية مهمة على طريق القوافل بين بنغازي ومدن الساحل البرقاوي ، وودان وفزان ومصر ، ومن خلالها تمر قوافل الحجيج في ذهابها وإيابها،" فقد وصفها أحد الحجاج المغاربة في منتصف القرن السابع عشر " كثيرة المرعى أحدقت بها جنان من الجوانب ، تستقي بالدوالب زرعها كثير وخيرها غزير تجلب الأرزاق من الأقطار والآفاق "[139] . وأقيمت المدينة في واحة تبعد في الصحراء إلى الجنوب من مدينة بنغازي بمسافة 260كم . ومما زاد من أهميته موقعها توفر المياه الجوفية العذبة الكافية لري القوافل المارة بها ولمزاولة النشاط الزراعي ولاسيما زراعة النخيل بأعداد كبيرة ، لذا فهي تنتج كميات كبيرة من التمور الجيدة اللازمة لغذاء السكان الوافدين والمحليين [140]. وتقسم المدينة إلى ثلاث مناطق زراعية : وهي مازوز في الشمال وهي غابة كثيفة من النخيل ومنطقة مثلى لزراعة الطماطم والخضار بسبب خصوبة أرضها ، وهي قليلة السكان، لذا استخدم الرقيق في الزراعة على نطاق واسع . وتقع السواني إلى الجنوب منها ببضع كيلومترات وهي عبارة عن غابة من النخيل المشهورة بعطائها من التمور الجيدة . وإلى الجنوب منها يمتد الوادي إلى البلاد , أي أوجلة المدينة ، وهي عبارة عن مجموعة من المباني المتراصة ولا ترى النخيل في جنباتها إلا إذا كانت نخلة مزروعة في فناء دار [141] .

تشكل الواحة مع واحتين أخريين وهما جالو واجخرة مثلثاً زراعياً تابعة لمدينة بنغازي، وفيها عدد من الموظفين العثمانيين المكلفين بجباية الضرائب أو أولئك المكلفون بإدارة شؤونها المالية والأمنية، وفى التقسيم الإداري لسنة 1864م أصبح هذا المثلث قضاءً تابعاً لمتصرفية بنغازي يدير شؤونها قائمقام يساعده مجلس إدارة يتكون من عدد من الأعضاء، فضلاً عن القاضي والكاتب العمومي. وبناءً تم تشكيل محكمة شرعية وتأسيس دائرة بريد، ثمة مراكز تجارية أخرى اتخذت من واحة الكفرة معبراً هاماً لها ولأهمية موقع الكفرة ازدادت أهميتها لدى الإدارة العثمانية فأمرت متصرف بنغازي بتأسيس قضاء في ذلك الموقع وإقامة قوة كافية لتأمين ذلك [142] .

أما قضاءا طبرق والجغبوب فقد ظهرا على وفق التقسيم الإداري لعام 1842 ، ويبدو أن إنشاءهما في الوقت ليس استجابة لكثافة سكانية أو لأهمية استراتيجية أو لضرورة اقتصادية وإنما لتصميم الدولة العثمانية بفرض سيطرتها المركزية على كامل التراب البرقي[143] . وتقع طبرق على الساحل الشمالي لبرقة بالقرب من الأراضي المصرية ، تبعد عن مدينة بنغازي إلى الشرق منها بنحو أربع مائة وخمسون كيلومتراً ، على دائرة عرض 34.43 شمالاً وعلى خط طول 29.39 شرقًا [144] . وتقع المدينة على ميناءها الطبيعي الشهير ، المكون من فجوة طبيعية أو إصبع مائي عرضه كيلومتر ونصف يمتد بما لا يقل عن أربعة كيلومترات داخل اليابسة ، ويعد مأوى طبيعي للسفن ، وهو بكل تأكيد أفضل ميناء طبيعي على ساحل البحر المتوسط الجنوبي ، ويصل عمق الماء فيه إلى اثني عشر متراً مما يؤهل السفن ذات الغاطس الكبير الاقتراب من الساحل [145] .

فقد دلت البقايا الايكيولوجية على ضفاف الميناء مثل أقنية المياه والصهاريج وبقايا برج قديم أطلق عليه العرب أسم الناظورة ، على أن طبرق كانت بقايا حضارة آفلة , فقد وصفها الإدريسي " أن القرى الليبية حولها تدل على عظمة وعمران غابر"[146] .وفي العصور الحديثة فقد ظهرت أهميتها عندما عام 1798 اتخذ نابليون ميناءها مأوى لاسطوله في عام 1798عند غزوه لمصر لقربه من الأراضي المصرية وحصانته الطبيعية . وفي الحكم العثماني الأول كانت المنطقة تابعة لقضاء درنة حتى عام 1842 ، وجرى استيطانها في السنوات اللاحقة . [147]. وعلى العموم فأن طبرق كانت إقليماً قبل أن تصبح ناحية أو قضاء يمتد من عين غزالة تقريباً حتى العقبة الكبرى وهو مضارب لعائلة مريم من قبيلة العبيدات (سعادي) (*) ومجموعة من قبائل المرابطين.

أما الجغبوب فهي واحة مالحة كبريتية المياه تبعد عن طبرق مسافة 160 كلم إلى الجنوب منها في الصحراء على طريق القوافل ، لا يكاد ماؤها يكفي لسد حاجة مساحة صغيرة من البساتين ،غير مناسبة لسكن مرفه وإن بدت منعزلة وخالية من مرض الملاريا[148]، ولكنها غير آمنة " حيث كانت مأوى الدعار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العبث في أنحائها "[149] . وظهر في تقسيم عام 1842 كأحد أقضية برقة ، دون أن تتبعه ناحية ما ، بيد أنه اختفى من التقسيم الآخر الذي ظهر في عام 1864 , ويبدو أن سبب ذلك أن الدولة العثمانية أسقطت الجغبوب من وحداتها الإدارية لكونها أصبحت عاصمة الحركة السنوسية منذ أن انتقل إليها محمد بن على السنوسي في العام 1856[150] .

الخاتمة

ويمكن القول أن إقليم برقة الواقع بين إقليمي وادي النيل العظيم الأهمية، وطرابلس الذي لا يقل عنه أهمية المتصل بصحراء مصر الغربية ، المطبوع بالطابع البدوي العربي القبلي الإسلامي ، بقي بطبيعته القبلية العصية على التغيير منذ دخول قبائل بني سليم ، التي زادت من تأصل القيم البدوية والعربية الإسلامي كما بقي لفترة طويلة خارج السيطرة المباشرة للحكومات المصرية ، كما هي الحال بالنسبة لحكومات طرابلس، وفي نهاية الأمر خضع دون عناء كبير للسلطة العثمانية في طرابلس . ويبدو أن الهدف من إخضاع الإقليم لم يكن لسد ثغرة واسعة من شواطئ البحر المتوسط أمام الأطماع الأجنبية أو لتطبيق استراتيجية ما ، بقدر ما كان الطمع بفوائض الإقليم الاقتصادية وفتحه أمام النهب الإقطاعي العسكري العثماني ، ويمكن القول أن الفضيلة الوحيدة للحكم العثماني والقرمانلي من بعده هي إرساء أسس الدولة الليبية الحديثة من الأقاليم الثلاثة برقة وطرابلس وفزان عندما حكم القرمانليون هذه الأقاليم في دولة واحدة بعيداً عن التدخل العثماني المباشر طيلة قرن ونيف من الزمن رغم النهب غير المبرر والتعسف الإداري والصراع بين أبناء الأسرة القرمانلي ، الذي كان ينعكس سلباً على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسياسية في الإقليم . وأخيراً وليس آخراً فقد حتمت الظروف المعيشية والثقافية التعسة التي واجهها أبناء الإقليم والممارسات الدينية الخاطئة وتراجع الأداء الوظيفي والعسكري العثماني والقرمانلي ، وتحمل سكان برقة نتائج التباين الاقتصادي والاجتماعي الذي انتجته فلسفة الإقطاع العسكري ، حتمت هذه الظروف إيجاد الأرضية المناسبة للحركة السنوسية الإصلاحية .

الهوامش الختامية

([1]) محمد مصطفى بازاما , قوريني نشأة المدينتين في التاريخ , (بنغازي ,1973) , ص . 9, ص166.

([2]) محمد مصطفى بازاما , واحات الجنوب البرقي بين الاسطورة والتاريخ ، (قبرص, 1994)، ص 113–114 .

([3]) أبو سالم عبد الله العياشي ، رحلة العياشي , ماء الموائد , تحقيق سعد زغلول وآخرون , (الاسكندرية ,1996), 146 – 147؛ أنظر كذلك إدريس عبد الصادق رحيل ، الإدارة البريطانية في برقة 1943– 1951 , رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب , جامعة عمر المختار , في عام 2005 , ص25 .

([4]) نقلاً عن عمار جحيدر ، آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث ,(بيروت ,1991),ص87 .

([5]) نقلاً عن المرجع نفسه ، ص 88.

([6]) (Department of Water and Soil Eastern Zone Branch , Baydah Area , Water Resource Study phase 1,n Contract 2/80. Technical Repot ,No.2,Geomorphology and Geology , Hydro. Geo.1992, p.15; M. Murabet ,Facts about Libya ,(Tripoli,1964),p.18 -19 .

(*)مارماريكا : وهى تضم منطقتي البطنان والدفنة حاليا وقد عرفت باسم مارماريكا نسبة إلى قبيلة المارمارياى الليبية.انظر: Oriebates ,The eastern Libyans ,(London,1914),p.54.

([7]) جمـــال حمدان، ج ع ل دراسة فـي الجغرافيا السياسيـة، (القاهرة : عالم الكتب، 1973)، ص ص76،77 .

([8]) عبد العزيز طريح شرف، جغرافية ليبيا ، الطبعة الأولى ،(الإسكندرية ،1962)، ص 54 - 55؛ محمد محمود الصياد؛ معالم جغرافية الوطن العربي ، الجزء الأول ، (بيروت،1976),ص169– 177؛ الهادي أبو لقمة وسعد خليل القريزي ,الجماهيرية الليبية , دراسة في الجغرافية ,(طرابلس ، 1995), ص52, 116 .

([9]) أنظر (M. Carve, The Geographic background of Greek and Roman History,(Oxford,1965), P.218-219; S.D. Goithein ,Mediterranean Trade in Eleventh Century :Some Facts and Problems in" Studies in the Economic History of Middle East", Oxford ,1978),p.212,324,326 .

([10]) كلوديو سيجري , الشاطئ الرابع، ترجمة عبد الخالق المحيشي ,(طرابلس ,1973), ص63 ؛ Agriculture in Libya and a Plan for its Development ,(Tripoli,1965-1967,p.14-17 .

([11]) محمد عثمان الحشائشي , جلاء الكر ب عن طرابلس الغرب , تحقيق علي مصطفى المصراتي ,(بيروت,1965), ص99 .

([12]) سعد قسطنطين, "مناخ إقليم المرج " , مجلة كلية الآداب , الجامعة الليبية , بنغازي , العدد السابع , د.ت , ص238–267 .؛ جودة حسنين جودة , دراسة في الجغرافية الإقليمية ,(الاسكندرية, 1985), ص595 ؛ حسن سليمان محمود, ليبيا بين الماضي والحاضر ,(القاهرة , 1962) ص 269– 272؛ سالم محمد الزوام، الجبل الأخضر دراسة في الجغرافيا الطبيعية،(بنغازي 1995)، ص35 .

([13]) جودة حسنين, المرجع نفسه ,ص592.

([14]) (Agriculture in Libya and Plan for Its Development, (Tripoli,1965-1967), p51.

([15]) صلاح صالح عبد المولى ,ملكية الأرض في إقليم برقة في العهد العثماني الثاني ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى جامعة عمر المختار في عام 2005 ، ص 12.

([16]) محمد عثمان الحشائشي ،المصدر السابق , ص91 .

([17]) عبد المولى صالح الحرير , "سياسة يوسف باشا الاقتصادية ، الحياة الاقتصادية للولايات العربية مصادر وثائقها في العهد العثماني ", مركز البحوث والدراسات عن الولايات العربية في العهد العثماني , (تونس 1986), ص88 ؛ Saad Abu -Oaf, "Legal Aspects of Tribal Lands and Settlement in Libya" in , Food and Agriculture Organization of the United Nations(Fao),Report to the Government of Libya on Developments of Tribal Lands and Settlements Project,Rome,1969 ,p.3 .

([18]) عبد المولى صالح الحرير , المرجع نفسه , ص 88 .

([19]) محمد عبد الجواد محمد , ملكية الأرض في ليبيا من العهود القديمة إلى العهد العثماني ،(بيروت , 1974),ص48 ؛ أنظر كذلك محمد مصطفى بازاما ، واحات الجنوب البرقي ، ص94 .

([20])Great Britain Foreign office,Historical Section,No.127,(London,1920),p.460Antony J.Cachia,op.cit., p.112.

([21])نقلاً عن نيقولا زيادة ، برقة الدولة العربية الثامنة ,(بيروت ، 1950) ,ص51.

([22]) نقلا عن ن. أ. بروشين ,تاريخ ليبيا في العصر الحديث : من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين , ترجمة عماد حاتم , (طرابلس , 1991) , ص64 .

([23])الأنعام ،151،139 .

([24]) ن. أ. بروشين ، تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام 1969, ترجمة عماد حاتم ,(طرابلس ,1988), ص31–32 ؛ أنظر كذلك E.E. Evans-Pritchard, The Sanusi of Cyrenaica,(Oxford ,1949),p. 34 .

([25]) عبد الجليل الطاهر ، المجتمع الليبي دراسات اجتماعية وانثروبولوجية , (بيروت , 1969)،ص273–275 ،276.

([26])إيف لاكوست ,العلامة ابن خلدون ، ترجمة نيشال سليمان ,(دار ابن خلدون ، 1982) الطبعة الثالثة , ص90 .

([27]) أحمد بن على القلقشندي , صبح الأعشى في صناعة الإنشاء , تحقيق محمد حسين شمس الدين,(بيروت, 198)،الجزء3, ص 529.

([28]) أبو عبد الله البكري, "المغرب في ذكر أفريقيا والمغرب " في كتاب المسالك والممالك , تحقيق دي سلان ،(الجزائر , 1911) ، ص5 .

([29])Great Britain ,F.O. Report of Justin Alvarez from Benghazi , Years 1890,1898, 1902 .

(*)البروفيسور الدكتور أحمد إبراهيم دياب مدير معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي ، في جامعة أم درمان الإسلامية .

([30]) أحمد إبراهيم دياب ، طريق درب الأربعين بين سلطنة دار فور الإسلامية وليبيا العثمانية ،في محمود احمد الديك، التواصل الحضاري الليبي السوداني عبر العصور، من أعمال الندوة العلمية العاشرة لمركز جهاد الليبيين في 1-2أبريل 2002 ، (طرابلس،2006)، ص445-455؛أنظر كذلك عبدالرحمن تشايتشي، الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى ، ترجمة على إعزازي ،(طرابلس،1982)، ص56؛عبد القادر جامي، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى ،ترجمة محمد الأسطى، (طرابلس،1974)،ص28 .

([31]) فرانشسكو كورو، ليبيا خلال العهد العثماني الثاني ،تعريب خليفة محمد التليسي ،(طرابلس،1971)،ص130، 131، 135؛ Dennis. D .Cordell "Eastern Libya .Wadai and the Sanusiya , A Tariqa and Trade Route", Journal of African History, Vol. 18, NO.1,(Cambridge,1977), PP21-36 ;انظر أيضا احمد سعيد الفيتوري، ليبيا وتجارة الصحراء، (طرابلس ، 1972)، ص12.

([32])أتوري روسي، ليبيا منذ الفتح الإسلامي حتى 1911، ترجمة خليفة محمد التليسي ،(بيروت , 1974)،ص 351 - 352.

([33]) عبد الرحمن بن خلدون ,العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر, (بيروت ، 1981) , الجزء السادس , ص144 .

(*) سكوين : عملة بندقية ويساوي نصف جنيه إسترليني، كولافولابان، ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القرمانلي ، ترجمة عبد القادر المحيشي ، الطبعة الأولى ،(طرابلس ،1988)، ص48.

([34])جورجيو كابوفين، طرابلس والبندقية في القرن الثامن عشر، ترجمة عبد السلام مصطفي باش أمام،(طرابلس، 1988)، ص 285.

([35]) أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، المصدر السابق ، ص 74.

([36]) رودولفو ميكاكي، طرابلس الغرب تحت حكم العائلة القرمانلية ، ترجمة طه فوزي ,(القاهرة ,1961) ، ص 22 ؛ أتوري روسي، المرجع السابق ، ص 307؛ محمد مصطفى بازامإ بنغازي عبر التاريخ ، (بنغازي ،1968), ص244.

([37])D. Denham and Others , Narrative of Travels in Northern and Central Africa in Years1822-1824, (London ,1826), p.436 ; Antony J. Cachia, Libya under the Second Ottoman Occupation1835-1911, (Tripoli,1945) , p. 84,141.

[38]) (A.J. Cachia ,Ibid.,p. 143 – 156 .

([39]) عيسى رمضان القبلاوي ، بدايات التخلف في الوطن العربي ،(طرابلس ،2005)، ص227 .

([41]) أنظر بشأن إنتاج ليبيا من أجل أوربا :- E. G. H. Joffe," Trade and Migration Between Malta and Barbary State 1835-1911"inM.M.Ghanem,S.M.Buruand Keith S.McLachlan, eds.,Planning and Development in modern Libya (Wisbech,Cambridgeshire,England,1985) p.3.

([42])في مدينة بنغازي 450 نولاً لصناعة النسيج القطني و50 نولاً لصناعة النسيج الصوفي و10 أنوال لصناعة النسيج الحريري ، وفي مدينة درنة 100 للنسيج القطني و12 للنسيج الحريري ، ذلك في أعتاب القرن العشرين . أنظر Antony J. Cachia ,op. cit., p.118 .

(*) هم الخلاسيون من أمهات زنجيات وآباء فقراء ، أو زنوج صرحاء ، قاسمهم المشترك سمرة وجوههم .

([43]) محمد بن عثمان الحشائشي التونسي ،جلاء الكرب عن طرابلس الغرب : رحلة الحشائشي إلى ليبيا ،(بيروت ،1965)، ص99.

([44]) علي عبد اللطيف حميدة ، المرجع السابق , ص119–120 .

([45]) محمد مصطفى بازاما، سكان ليبيا في التاريخ، ط1، (بيروت ، 1994)، ص22؛ عبد اللطيف محمد البرغوثى، التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي، (بيروت ،1971) ، ص107.

([46])رجب عبد الحميد الأثرم، محاضرات في تاريخ ليبيا القديم، ص56،57.

([47]) محمد بيومى مهران، المغرب القديم، (الإسكندرية ، 1990)، ص89.

([48]) هيردوت، الكتاب الرابع من تاريخ هيردوت الكتاب السكيثى والكتاب الليبي، نقله عن اليونانية محمد المبروك دويب، ط1، (بنغازي ، 2003)، ص117؛ أندرية لاروند، برقة في العصر الهلينستى من العهد الجمهوري حتى ولاية أغسطس، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، ط1، (بنغازي ، 2002)، ص81؛ غو ليام ناردوتشي، استيطان برقة قديما وحديثا، ترجمة إبراهيم المهدوى، ط1،(سرت ، 1995) ، ص53.

([49]) محمد مصطفى بازاما، سكان ليبيا , ص342 ؛ خالد محمد الهدار، " تاريخ الكشف الأثري لمدينة توخيرة"، مجلة البحوث التاريخيـــة، السنة 29، العدد1، (طرابلس ، مركز جهاد الليبيين، يناير 1997)، ص115.

([50]) E.M. Small Wood , The Jews in Egypt and Cyrenaica during the Ptolemaic and Roman Period in Africa in Classical Antiquity ,(Nigeria,1969),p.125 ; سليمان خطاب سويكر، الجالية اليهودية في إقليم برقة تحت الاستعمار الايطالي 1911-1942، ط1، (بنغازي ، 2005)، ص17.

([51])ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ط1، (دمشق ، 1999)، ص126؛ محمد مصطفى بازاما، ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية، (طرابلس ، 1965)، ص25؛ صالح مصطفي مفتاح، ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، ط2 ، (بنغازي ،1994)، ص172؛ عبد القادر طليمات، سكان ليبيا عند اليعقوبى، المؤتمر التاريخي 16-23 مارس 1968، (بنغازي: 1968)، ص229 ؛ شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري، ط1،(بيروت: د ن، 1952)،ص180.

(52) اليعقوبى، المصدر السابق، ص 343؛ صالح مصطفى مفتاح، المرجع السابق، ص190،191, 199؛ عبد الفتاح رجب حمد، تاريخ برقة الإسلامي في الفترة من القرن الخامس حتى الربع الأول من القرن العاشر الهجري، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية البنات – جامعة عين شمس، قسم التاريخ،2007، ص28.

(53) القلقشندى، قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان، تحقيق إبراهيم الأبيارى,(القاهرة ،1982)، ص125؛أحمد النائب الأنصاري، نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تقديم محمد زينهم، محمد عزب، (طرابلس ،1994)، ص24،25, عبد المجيد مزيان , النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون ،(الجزائر ،1985)،ص380 .

(54) عيسى رمضان القبلاوي ، المرجع السابق ، ص31 .

(*) تباينت الروايات بشأن نسبها تبايناً واضحاً ، فمنهم من ينسبها إلى الروم , ومنهم من يدعي أنها ابنة الزناتي خليفة أو أنها من بني سليم ، ومهما كان أصلها إلا أنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة نفيسة عالية القيمة .

(55) أنظر عبد الجليل الطاهر ، المجتمع الليبي , ص 280؛ إيف لاكوست ، المرجع السابق ، ص193 ؛ أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي ، المصدر السابق، ص183.

(56) ن. أ. بروشين , تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر . . , ص53 .

(*) نكاح الشغار هو أن يتبادل العريسان أختيهما أو ابنتيهما كل يتزوج أخت أو ابنة الآخر دون التكلف بدفع مهر لأي منهما .

(*) الحجر أن يمنع ابن العم زواج ابنة عمه إذا رفضت الزواج به .

(57)رفعت الجوهري، رفعت، شريعة الصحراء عادات وتقاليد، ط2، (القاهرة الهيئة ، 2001) ، ص197- 199؛ فرج عبد العزيز نجم، القبيلة والإسلام والدولة، ط1، (القاهرة ، 2005)، ص280.

(58) عبد الجليل الطاهر ، المجتمع الليبي ، ص 6؛ E.E. Evans- Pritchard , op. cit., p.61 .

(59) المرجع نفسه, ص295 .

(60) ن. أ. بروشين ،تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر . . . , ص54 ــ 55 .

(61) عبد الله بن محمد التجاني ,رحلة التجاني ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ،(تونس ،1981)، ص 191-192 ؛ روبار برنشفيك، تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي ، ترجمة حمادي الساحلي ،(دار الغرب الإسلامي ,1988)،ص204 ؛ F. Braudel, Civilization and Capitalism in 15th Century ,V.1,Harper &Row Publisher , Premeria Library, 1986,p74 ; Michael Dols, The General Mortality of the Black Death in the Mamluk Empire , in the Islamic Middle East,p.397 .

(62) اختلفت تقديرات أعداد سكان الإقليم باختلاف الزمن أو الدوافع وعلى أية حال تبقى الأعداد محض تقديرات . أنظر أنتوني جوزيف كاكيا ، ليبيا في العهد العثماني الثاني1835-1911م، ترجمة: يوسف حسن العسلي،(بيروت، 1964)، ص 88 .

(63) عبد الجليل الطاهر ، المجتمع الليبي ، ص296ــ302 .

(64)ن. أ. بروشين ،تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر . . . ،ص 49 ــ50 .

(65) محمد الطيب الأشهب ،برقة العربية بين الأمس واليوم ، (القاهرة ، 1945)، ص65 .

(66) عبد الجليل الطاهر , المجتمع الليبي .ص283 ــ285 .

(67) محمد الطيب الأشهب , برقة العربية , ص 112.

(68) Della Cella ,Narrative of Expedition from Tripoli in Barbary to the Western Frontier of Egypt in 1817 by the Bay of Tripoli, p.7,51,220,224 ;E. E. Eanvs- Pritchard, op.cit.,p.49 .

(69) محمد الطيب الأشهب ،برقة العربية ، ص113.

(70) المرجع نفسه ، ص119ــ120 .

(71) (د. م. ت. ط.)، تقرير صادق المؤيد العظم المسئول في السلطات العثمانية بخصوص زيارته للسيد المهدي السنوسي في الكفرة في عام 1890 ,ص 2.

(72) علي عبد اللطيف حميدة ، المرجع السابق ، ص119،118.

(73) منظمة الأمم المتحدة , التقرير السنوي . . . , رقم 15 ، لعام 1950, ص5 ؛ عبد الجليل الطاهر ، البدو والعشائر في البلاد العربية، (القاهرة، 1954)،ص2؛ أنظر كذلك عبد الجليل الطاهر ، المجتمع الليبي ،ص 284 .

(74) E.E.Evans – Pritchard,op. cit., p.42 .

(75) Ibid., p.52-53 .

(76)نيقولا زيادة ,ليبيا في العصور الحديثة ،(القاهرة، 1966), ص15ــ16؛محمود الشنيطي ،قضية ليبيا،(القاهرة،1951)،ص7؛ أنظر كذلك علي عبد اللطيف حميدة ، المرجع السابق ، ص114 .

(77) نيقولا زيادة ،برقة الدولة العربية الثامنة ،(بيروت،1950)، ص25 .

(*) يرى الباحث أن هذه النسب لم تتغير في القرن العشرين ولذلك اعتمدها في النصف الأول من القرن التاسع عشر لدعم فكرته .

(78) هنريكو دي أوغستيني , سكان ليبيا , تعريب خليفة محمد التليسي , ج 1 , (الدار العربية للكتاب , د.ت.)، ص 444.

(79) نيقولا زيادة ,ليبيا في العصور الحديثة , ص15 ؛ عبد الجليل الطاهر، المجتمع الليبي , ص288 ,289.

(80) علي عبد اللطيف حميدة ، المرجع السابق ، ص115 .

(81) مصطفى عبدالعزيز الطرابلسي، درنة الزاهرة , ط1, (درنة ,1999) , ص 45،46.

(82) علي عبد اللطيف حميدة , المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا 1830-1932, ط2 ,(بيروت , 1998)، ص53.

(83) E. M. Small Wood , op. cit., p. 125 ; John Gray ,The Jewish Inscriptions in Greek and Hebrew at Tocra, Cyrene and Barce,(Manchester,1952),p.43-44 .

(84) مأمون كيوان ، يهود الشرق الوسط :الخروج الأخير من الغيتو الجديد ,(الأهلية للنشر والتوزيع د. م. ، 1996), ص85.

(85) هنريكو دي أوغستيني , المصدر السابق ، ص 44-45.

(86) علي عبد اللطيف حميدة ،المرجع السابق ، ص 95 ؛ أحمد صدقي الدجاني ،ليبيا قبيل الايطالي أو طرابلس الغرب في أواخر العهد العثماني ، (القاهرة، 1971م) ، ص221 .

(87) محمد الطيب الأشهب ، السنوسي الكبير ،(القاهرة , د. ت.), ص116؛ E. E. Evans –Pritchard ,op. cit., p.110-113.

(88) علي عبد اللطيف حميدة ، المرجع السابق ، ص 65- 96 ؛ وللمزيد ينظر: الدجاني ، المرجع السابق ، ص 223،220.

(89) عبد الجليل الطاهر ، المجتمع الليبي ،ص 304 –306 .

(90) جون فرنسيس ليون ، من طرابلس إلى فزان 1818–1820, ترجمة مصطفى جودة ،(طرابلس ,1976)، ص12 وما بعدها .

(91) E.E. Evans Pritchard , op. cit., p .14-16 .
(92) Quoted in Ibid., p.13-14 .
(93) تيسير ابن موسى ، المجتمع العربي الليبي في العثماني ، (طرابلس ،1988)،ص 67.
(94) ريتشارد تواللي، عشر سنوات في بلاط طرابلس ، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة ،(طرابلس، مكتبة الفرجاني ، د.ت.)،71 .
(*) نسبة إلى مدينة قرمان في الأناضول .
(95) مصطفى عبدالله الفاسى، البحر المتوسط في الاستراتيجية العثمانية خلال القرن 16، ط1،(الرباط : كلية الآداب والعلوم الإنسانية،2003)، ص32 ؛ نيقولاى ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله،(بيروت ، 1988) ، ص 32،33.
(96) اتورى روسى، ليبيا منذ الفتح العربي حتى 1911، ترجمة خليفـة محمد التليسي، ط2، (بيروت ،1974)، ص166؛
Philip Hitti , History of the Arabs from the Earliest Times to the Present.(U.S.A ,), p. 712-713.
(97) Mantran ,"North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", The Cambridge History of Islam. Vo.l 1. Edited by p.M.Holt. A.K.S Lambton. and B. Lewis,(Cambridge.1970),. P.261. 262 .
(98) محمد مصطفى بازاما، تاريخ برقة في العهد العثماني الأول، بيروت ،1994)، ص 182-184.
(99) شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الايطالي، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، الطبعة الثانية (طرابلس ، 1983)، ص 180.
(100) مصطفى عبد العزيز الطرابلسي، درنة الزاهرة , الطبعة, (درنة ,1999)، ص51.
(101) شارل فيرو ، المصدر السابق ،ص148 –149 ؛ محمد عمر مروان "حملة محمد باشا الصاقزلي على أوجلة وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي"، مجلة البحوث التاريخية السنة 1، العدد 1، (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2001)، ص 168-169.
(102) يحكى أن مقدار ما سلبه عثمان بك الصاقزلي من التبر كان حمولة اثني عشر جملاً من التبر وأعداد كبيرة من الرقيق . وافتدى أحمد عبد الهادي نفسه بثمانية وعشرين ألف مثقال من الذهب , وحلف الأمير الزنجي أن يدفع ورعاياه جزية سنوية مقدارها خمسة عشر ألف مثقال نب الذهب أنظر بأن ذلك : شارل فيرو المصدر السابق ,ص150 ؛ أحمد خليل بن غلبون ، التذكار في من ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار (طرابلس : مكتبة النور، 1967)، ص162؛ أنظر كذلك ن. ا. بروشين , تاريخ ليبيا في العصر الحديث ،ص 65 .
(103) Dennis. D. Cordell, op. cit., p 21-36.
(*)تطلق هذه التسمية على سلاح الفرسان , ومن المرجح أن أصل التسمية هي تحوير لكلمة (الصباحية) المشتقة من هجوم الفرسان صباحاً .
(104) أحمد عبدالرحيم مصطفي، في أصول التاريخ العثماني، ط1، (القاهرة ، 1982)، ص 127،120.
(*) الكراغلة هم مولدون من زواج أفراد الانكشارية بالنساء الليبيات .
(105) عمر عبدالعزيز عمر، تاريخ المشرق العربي 1516-1922، (بيروت ، 1985)، ص 55- 57 ،114–115.
(106) شارل فيرو، المصدر السابق ،ص156-157؛ محمد مصطفى بازاما، تاريخ برقة في العهد العثماني الأول، ص236- 237.
(107) محمد رجب الزائدي، ليبيا في العهد القرمانلي، (بنغازي،1974)، ص21–25 .
(108) احمد خليل بن غلبون، المصدر السابق، ص 190؛احمد النائب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي، (طرابلس، 1961)، ص 567.
(109) ردولفو ميكاكي، طرابلس الغرب تحت حكم الأسرة القرمانلية، ترجمة طه فوزي، (القاهرة ،1961)، ص 21،20؛عمر بن علي إسماعيل، انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا 1827- 1835، رسالة ماجستير منشورة جامعة عين شمس، كلية الآداب، قسم التاريخ، (القاهرة، 1966)، ص 23.
(110)رودولفو ميكاكي، المرجع نفسه ، ص37–38 ؛ محمد رجب الزائدي، المرجع السابق، ص19؛ محمد مصطفي بازامة، تاريخ برقة في العهد القرمانلي، الطبعة الثانية ،الجزء الأول ،(بيروت،1994)، ص61-62
(111) عزيز سامح ألتر ، الأتراك العثمانيون في شمال أفريقيا، ترجمة عامر علي محمود ، ص145؛ محمد خليل بن غلبون ، التذكار فيمن سكن طرابلس من الأخيار ، ص 194 .
(112) محمد امحمد الطوير، ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني في ولاية طرابلس الغرب،1831-1842، ط1، (الزاوية،2003)، ص 78.
(113) أنظر أيضاً أحمد سعيد الفيتوري ، المرجع السابق ،ص 12؛ Dennis. D. Cordell, op.cit., p. 21-3; رودولفو ميكاكي ،المرجع السابق ،ص 22.
(114) عبد الله خليفة الخباط، العلاقات السياسية بين ايالة طرابلس الغرب وانجلترا، ط1، (طرابلس ،1985)، ص209؛ عمر علي بن إسماعيل، المرجع السابق، ص 25؛ محمد عبد الكريم الوافي، يوسف باشا القرمانلي والحملة الفرنسية على مصر، ط1 (طرابلس،1984)، ص 63؛ شارل فيرو، المصدر السابق،302.
(115) L .Wright & J. McLeod , First Americans in North Africa,(N.Y.,1945),p 101.
(116) Ibid., p. 114 .
(117)محمد مصطفي بازاما، تاريخ برقة في العهد القرمانلي،(بيروت ،1994)، ص189-191؛ عمر علي بن إسماعيل، المرجع السابق، ص 98.
(118) شارل فيرو، المصدر السابق، ص388–389 ؛ أنظر تفصيل ذلك في ن. أ. برشين ، تاريخ ليبيا الحديث ، ص 182ومابعدها ؛ عن العلاقات الأميركية الطرابلسية محمود احمد الديك، "رؤيـة في الصراع الليبي الأمريكي خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين"، مجلة البحوث التاريخيـة، السنة 22، العدد 2، (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية،2005) ، ص 133.
(119) أنظر شارل فيرو ، المصدر نفسه ، ص401–402 .
(120) Della Cella ,op. cit., p.7,51,220,224; أنظر كذلك محمد مصطفى بازاما، بنغازي عبر التاريخ،ج1،(بنغازي، 1969)، ص270–279 .
(121) محمد مصطفي بازاما، تاريخ برقة في العهد القرمانلي، ص42، 43, 67 .
(122) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ،(القاهرة، ؟؟؟)، ص ؟؟؟؟، أنظر كذلك عبد العزيز محمد عوض ، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ، (القاهرة ، 1969)، ص19,20 .
(123) دار المحفوظات التاريخية ، طرابلس (د. م. ت. ط.)ملفات الإدارة في العهد العثماني الأول والعهد القرمانلي .
(124) هيردوت، المصدر السابق، ص118؛إبراهيم نصحي , إنشاء قوريني وشقيقاتها , ط1, (بنغازي , 1970)، ص84,83.
(125) اليعقوبي، مصدر سابق، ص181 ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ج1، (القاهرة ، د.ت)، ص311؛ جولد تشايلد , تاريخ مدينة , ترجمة صالح جبريل , ط2, (بنغازي , 2003) , ص29.
(126) نقلاً عن عمار جحيدر ، أفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث ,(بيروت، 1991), ص 98.
(127) وهبي البورى، المرجع السابق، ص9؛غيرهارد رولفس، رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية ، ترجمة عماد الدين غانم، ط1، (طرابلس،2002)، ص112.

([128]) جيمس هاملتون، جولات في شمال أفريقيا، ترجمة المبروك الصويعى، ط1 (طرابلس، د ت)، ص96؛ أحمد محمد القلال، سنوات الحرب والإدارة العسكرية البريطانية في برقة 1943-1949، ط1، (بنغازي ، 2003)، ص390.

([129]) عائشة موسى محمد، التاريخ الاجتماعي لمدينة بنغازي من واقع سجلات المحكمة الشرعية 1911- 1942، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة قاريونس، كلية الآداب، قسم التاريخ، 2003، ص8 ؛لودفيغ سلفاتور، السواحل الليبية التونسية في الرحلة البحرية للأمير النمساوي لودفيغ سلفاتور 1873، ترجمة عماد الدين غانم، ط1، (طرابلس ، 2005)، ص80، 82؛ سليمان خطاب سويكر، المرجع السابق، ص19.

([130]) (د. م. ت. ط)، وثيقة رقم10، ملف 1، بحرية، إنشاء منارة للسفن بمدينة بنغازي.؛ (د. م. ت. ط)، وثيقة رقم 23، ملف2 بحرية.

([131]) غوليالم ناردوتشي، المرجع السابق، ص 197؛جميس هاملتون، المصدر السابق، ص103 ؛ جولد تشايلد، المرجع السابق، ص 33؛ غيرهارد رولفس، المصدر السابق، ص 113.

([132]) مقتبس من عمار جحيدر ، المرجع السابق ، ص 99 .

([133]) العياشي، المصدر السابق، ص 157؛جميس هاملتون، المصدر السابق، ص124 ؛ غيرهارد رولفس، المصدر السابق، ص 182.

([134]) (د.م .ت. ط.) ، ملفات الإدارة في العهد العثماني الأول ، والعهد القرمانلي ؛ ملفات الإدارة في زمن محمد أمين باشا .

(*) يبدو أن المدينة قسمت إلى أربعة محلات فيما بعد وهي : أبو منصور ،المغار ، الجبيلة ، البلاد .

([135]) مصطفى الطرابلسى، المرجع السابق، ص59 ،61؛ لودفيغ سلفاتور، المصدر السابق، ص 63.

([136]) (د. م. ت. ط)، وثيقة رقم 10، ملف1 بحرية؛ لودفيغ سلفاتور، المصدر نفسه، ص 63.

([137]) الأخـــوان بيتشي، الأخوان بيتشي والساحل الليبي، ترجمة الهادي أبولقمة، ط1، (بنغازي ، 1996)، ص259؛ محمد مصطفى بازاما ، قورينة وبرقة نشأة المدينتين في التاريخ، (بنغازي ،1973)، ص186.

([138]) (د. م. ت. ط)، وثيقة رقم 212، ملف 8، رسالة بخصوص إنشاء قصرين في المرج ولآلي، سنة 1842م.؛ Nahum Slouschz,Travels in North Africa ,(Philadelphia .the Jewish Publication Society of America,1927),P.82.

([139]) أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي , أنس الساري والسارب من أقطار المغار ب في منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب ، تحقيق محمد الفاسي ، (الدار البيضاء ،1968)،ص35 .

([140]) الطاهر احمد الزاوي، معجم البلدان، ص 42؛جان ريمو باشو، رحلة إلى بلاد مرمرة وبرقة وواحتي أوجلة ومراده، ترجمة مفتاح عبدالله المسوري، ط1،(بيروت، 1999)، ص317؛محمد بشير سويسى،" معالم تاريخ أوجلة عبر العصور"، مجلة البحوث التاريخية، السنة 2، العدد1، (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2001)، ص133-141.

([141]) محمد مصطفى بازاما ،واحات الجنوب البرقي . . . ، ص 25 .

([142]) محمد محمود محمد، واحة أوجلة وتجارة القوافل خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر، رسالة ماجستير غير منشـورة، جامعة قاريونس، كلية الآداب، قسم التاريخ 2005، ص49،45،46؛ الصادق المؤيد العظم، رحلة في الصحراء الكبـرى بأفريقيا، ترجمة عبدالكريم أبوشويرب، ط1، (طرابلس ، 1998)، ص145؛(د. م. ت. ط)، وثيقـة رقم 250، ملف 10، برقية إلى متصرف بنغازي بشأن تأسيس قضاء في موقع الكفرة، بتاريخ 6 آذار 1909م.

([143]) (د. م. ت. ط.) ملفات الإدارة في عهد محمد أمين باشا .

([144]) سليمان منصور الحداد "طبرق" مجلة ليبيا المصورة , العدد الثاني عشر ، السنة الأولى ,1935 ,ص11 .

([145]) محمود ناجي ، تاريخ طرابلس الغر ب، ترجمة عبد السلام أدهم ، (بنغازي ،)1970 ،ص75 ؛ محمود ناجي ومحمد نوري ، طرابلس الغرب، ترجمة أكمل الدين محمد إحسان ،(طرابلس , 1973),ص77.

([146]) نقلاً عن سلمان منصور الحداد ، طبرق ، ص11–12 .

([147]) أنظر شارل فيرو ، المصدر السابق ،ص502 ؛ ن.أ. بروشين ، تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر . . . ، ص 75؛ سلمان منصور الحداد ، طبرق ،ص11 .

(*)ينسب الدكتور علي عبد اللطيف حميدة عائلة مريم إلى المرابطين ، وفي حقيقة الأمر أنهم من العبيدات وهم أسياد المنطقة الممتدة من القرضبة حتى الحدود مع مصر ، ولهم باع كبير في مقارعة الطليان بقيادة شيخهم المبري ياسين بطل معركة الناظورة, ومضاربهم تتداخل مع قبيلتي القطعان (الرحامنة) والمنفة(عيت بريدان رهط عمر المختار) المرابطتين وبعض الشواعر .

([148]) E. E. Evans Pritchard , op. cit., p 30-31 .

([149]) محمود شلبي ، عمر المختار المثل الخالد للنضال ، (دار مكتبة الفكر العربي)، ص16 .

([150]) (د. م. ت. ط.) , ملفات التقسيمات الإدارية في عهد محمد أمين باشا ؛ ن. أ. بروشين ، تاريخ ليبيا الحديث ، ص333 .

المصادر والمراجع

1. (دار المحفوظات التاريخية ، طرابلس) ، ملفات الإدارة في عهد أمين باشا .
2. ـــــــ،ملفات الإدارة في العهدين العثماني والقرمانلي .
3. ـــــــ، ملف 10، وثيقة رقم 250 ، برقية إلى متصرف بنغازي بشأن تأسيس قضاء الكفرة .
4. ـــــــ، ملف رقم 1، وثيقة رقم 10, بحرية ، بشأن انشاء منارة السفن في بنغازي .
5. ـــــــ، ملف رقم 2 ، وثيقة رقم , 23 بحرية .
6. ـــــــ، ملف رقم 8 ، وثيقة رقم 212,رسالة من الوالي بشأن إنشاء قصرين في المرج في عام 1842.
7. ـــــــ تقرير صادق المؤيد العظم المسئول في السلطات العثمانية بخصوص زيارته للسيد المهدي السنوسي في الكفرة في عام 189.
8. منظمة الأمم المتحدة,التقرير السنوي . . . ,رقم 15،لعام 1950.الأثرم،رجب عبد الحميد،محاضرات في تاريخ ليبيا القديم .
9. الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ج1، (القاهرة ، د.ت).
10. إسماعيل، عمر بن علي ، انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا 1827- 1835، رسالة ماجستير منشورة جامعة عين شمس، كلية الآداب، قسم التاريخ، (القاهرة، 1966).
11. الأشهب ، محمد الطيب ، برقة العربية بين الأمس واليوم ، (القاهرة ، 1945) .
12. ـــــــ ، السنوسي الكبير ،(القاهرة , د. ت.) ,

13. ألتر ، عزيز سامح ، الأتراك العثمانيون في شمال أفريقيا، ترجمة عامر علي محمود.
14. الأنصاري ، أحمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي، (طرابلس، 1961).
15. ـــــــ، نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تقديم محمد زينهم، محمد عزب، (طرابلس ،1994) .
16. ايفانوف، نيقولاى ا، الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله،(بيروت ، 1988).
17. دي أوغستيني ، هنريكو , سكان ليبيا , تعريب خليفة محمد التليسي , ج 1 , (الدار العربية للكتاب , د.ت.).
18. بازاما، محمد مصطفى ، بنغازي عبر التاريخ،ج1،(بنغازي: دار ليبيا، 1969).
19. ـــــــ ، تاريخ برقة في العهد العثماني الأول، ط1، (بيروت : دار الحوار الثقافي العربي الأوربي، 1994).
20. ـــــــ، تاريخ برقة في العهد القرمانلي، ط1، (بيروت : دار الحوار الثقافي العربي الأوربي، 1994).
21. ـــــــ ، سكان ليبيا في التاريخ، ط1، (بيروت : دار الحوار الثقافي العربي الأوربي ، 1994) .
22. ـــــــ ، قورينة وبرقة نشأة المدينتين في التاريخ، (بنغازي ،1973).
23. ـــــــ،ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية، (طرابلس ، 1965).
24. ـــــــ ،واحات الجنوب البرقي بين الاسطورة والتاريخ، ط1،(بيروت , دار الحوار الثقافي العربي الأوربي، 1994).
25. باشو,جان ريمو،رحلة إلى بلاد مرمرة وبرقة وواحتي أوجلة ومراده،ترجمة مفتاح عبدالله المسوري،ط1، (بيروت، 1999).
26. البرغوثي ،؛ عبد اللطيف محمد ، التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي، (بيروت ، 1971).
27. برنشفيك ، روبار, تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي ، ترجمة حمادي الساحلي ،(دار الغرب الإسلامي ,1988).
28. بروشين , نيكولاي أوليانوف ،تاريخ ليبيا في العصر الحديث : من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين , ترجمة عماد حاتم , (طرابلس , 1991).
29. ـــــــ، ، تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام 1969, ترجمة عماد حاتم ,(طرابلس ,1988).
30. بيتشي , الأخـــوان ، الأخوان بيتشي والساحل الليبي، ترجمة الهادي أبولقمة، ط1، (بنغازي ، 1996).
31. التجاني , عبد الله بن محمد ، رحلة التجاني ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ،(تونس ،1981).
32. تشايتشي، عبد الرحمن ، الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى ، ترجمة على إعزازي ، (طرابلس،1982).
33. تشايلد , جولد، تاريخ مدينة , ترجمة صالح جبريل , ط2, (بنغازي , 2003) .
34. توللي، ريتشارد، عشر سنوات في بلاط طرابلس، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة ،(طرابلس ، د.ت.).
35. جامي، عبد القادر ، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى ،ترجمة محمد الأسطى، (طرابلس،1974).
36. جحيدر ، عمار ، آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث ,(بيروت ,1991).
37. جودة ،جودةحسنين , دراسة في الجغرافية الإقليمية ,(الاسكندرية, 1985).
38. الجوهري ، رفعت الجوهري، رفعت، شريعة الصحراء عادات وتقاليد، ط2، (القاهرة الهيئة ، 2001) .
39. الحداد ،سليمان منصور ،"طبرق" مجلة ليبيا المصورة , العدد الثاني عشر ، السنة الأولى ,1935.
40. الحرير ، عبد المولى صالح الحرير , "سياسة يوسف باشا الاقتصادية ، الحياة الاقتصادية للولايات العربية مصادر وثائقها في العهد العثماني ", مركز البحوث والدراسات عن الولايات العربية في العهد العثماني,(تونس 1986).
41. الحشائشي، محمد بن عثمان التونسي ،جلاء الكرب عن طرابلس الغرب : رحلة الحشائشي إلى ليبيا ، تحقيق على مصطفى المصراتي، (بيروت ،1965).
42. حمد ، عبد الفتاح رجب ، تاريخ برقة الإسلامي في الفترة من القرن الخامس حتى الربع الأول من القرن العاشر الهجري، رسالـــة دكتوراه غير منشورة، كلية البنات ـ جامعة عيـــن شمس، قسم التاريخ،2007، ص28.
43. حمدان،جمال ، ج ع ل دراسة في الجغرافيا السياسية، (القاهرة : عالم الكتب، 1973).
44. حميدة ، علي عبد اللطيف , المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا 1830-1932, ط2 ,(بيروت , 1998).
45. الخباط ، عبد الله خليفة ، العلاقات السياسية بين ايالة طرابلس الغرب وانجلترا، ط1، (طرابلس ،1985).
46. بن خرداذبة، المسالك والممالك، ط1، (دمشق ، 1999) .
47. بن خلدون ، عبد الرحمن ,العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر , الجزء السادس، (بيروت ، 1981) .
48. الدجاني ، أحمد صدقي ، ليبيا قبيل الايطالي أو طرابلس الغرب في أواخر العهد العثماني ، (القاهرة، 1971م)
49. دياب،أحمد ابراهيم ، طريق درب الأربعين بين سلطنة دار فور الإسلامية وليبيا العثمانية ،في محمود احمد الديك، التواصل الحضاري الليبي السوداني عبر العصور، من أعمال الندوة العلمية العاشرة لمركز جهاد الليبيين في 1-2أبريل 2002 ، (طرابلس،2006).
50. الديك ، محمود احمد ، "رؤيـة في الصراع الليبي الأمريكي خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين"، مجلة البحوث التاريخيـة، السنة 22، العدد 2، (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية،2005).
51. رحيل ، إدريس عبد الصادق ، الإدارة البريطانية في برقة 1943– 1951 , رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب , جامعة عمر المختار , في عام 2005.
52. روسى، اتورى ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى 1911، ترجمة خليفـة محمد التليسي، ط2، (بيروت ،1974) .
53. رولفس، غيرهارد رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية ، ترجمة عماد الدين غانم، ط1، (طرابلس،2002)، ص112.
54. الزائدي ، محمد رجب ، ليبيا في العهد القرمانلي، (بنغازي،1974).

55. الزوام ، سالم محمد الزوام، الجبل الأخضر دراسة في الجغرافيا الطبيعية،(بنغازي 1995).
56. زيادة ، نيقولا ، برقة الدولة العربية الثامنة ،(بيروت،1950) .
57. ـــــــــــ , ليبيا في العصور الحديثة ،(القاهرة، 1966).
58. سلفاتور , لودفيغ ، السواحل الليبية التونسية في الرحلة البحرية للأمير النمساوي لودفيغ سلفاتور 1873، ترجمة عماد الدين غانم، ط1، (طرابلس ، 2005).
59. سويسى ، محمد بشير ،" معالم تاريخ أوجلة عبر العصور"، مجلة البحوث التاريخية، السنة 2، العدد1، (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2001).
60. سويكر، سليمان خطاب ، الجالية اليهودية في إقليم برقة تحت الاستعمار الايطالي 1911-1942، ط1، (بنغازي، 2005).
61. سيجري , كلوديو، الشاطئ الرابع، ترجمة عبد الخالق المحيشي ,(طرابلس ,1973).
62. شلبي ، محمود ، عمر المختار المثل الخالد للنضال ، (دار مكتبة الفكر العربي).
63. شرف، عبد العزيز طريح، جغرافية ليبيا ، الطبعة الأولى ،(الإسكندرية ،1962).
64. الشنيطي ، محمود ، قضية ليبيا،(القاهرة،1951).
65. الصياد، محمد محمود ، معالم جغرافية الوطن العربي ، الجزء الأول ، (بيروت،1976).
66. الطاهر ، عبد الجليل الطاهر ، البدو والعشائر في البلاد العربية،(القاهرة، 1954) .
67. ـــــــــــ ، المجتمع الليبي دراسات اجتماعية وانثروبولوجية , (بيروت , 1969).
68. الطرابلسي ، مصطفى عبدالعزيز ، درنة الزاهرة , ط1, (درنة ,1999).
69. طليمات ، عبد القادر، سكان ليبيا عند اليعقوبى، المؤتمر التاريخي 16-23 مارس 1968، (بنغازي: 1968) .
70. الطوير، محمد امحمد ، ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني في ولاية طرابلس الغرب،1831-1842، ط1، (الزاوية،2003).
71. عبد المولى ، صلاح صالح ,ملكية الأرض في إقليم برقة في العهد العثماني الثاني ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى جامعة عمر المختار في عام 2005.
72. العظم , الصادق المؤيد ، رحلة في الصحراء الكبرى بأفريقيا، ترجمة عبدالكريم أبوشويرب، ط1، (طرابلس ، 1998) .
73. عوض ، عبد العزيز محمد ، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ، (القاهرة ، 1969) .
74. العياشي ، أبو سالم عبد الله , رحلة العياشي , ماء الموائد , تحقيق سعد زغلول وآخرون ,(الاسكندرية ,1996).
75. بن غلبون ، محمد خليل ، التذكار فيمن سكن طرابلس من الأخيار ، ص 194 .
76. الفاسي ، مصطفى عبدالله ، البحر المتوسط في الإستراتجية العثمانية خلال القرن 16، ط1،(الرباط ،2003) .
77. فولايان ،كولا، ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القرمانلي ، ترجمة عبد القادر المحيشي ، الطبعة الأولى ،(طرابلس ، 1988) .
78. الفيتوري ، احمد سعيد ، ليبيا وتجارة الصحراء، (طرابلس ، 1972).
79. فيرو ، شارل ، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الايطالي، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، الطبعة الثانية (طرابلس ، 1983).
80. فيصل ، شكري ، حركة الفتح الإسلامي في القرن ألأول الهجري، ط1،(بيروت: د ن، 1952).
81. القبلاوي ، عيسى رمضان ، بدايات التخلف في الوطن العربي ،(طرابلس ،2005).
82. قسطنطين, سعد ، "مناخ إقليم المرج ", مجلة كلية الآداب , الجامعة الليبية , بنغازي , العدد السابع , 1968 .
83. القلال ،أحمد محمد ، سنوات الحرب والإدارة العسكرية البريطانية في برقة 1943-1949، ط1، (بنغازي ، 2003) .
84. القلقشندي ، قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان، تحقيق إبراهيم الأبيارى,(القاهرة ،1982) . عبد المجيد مزيان , النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون ،(الجزائر ،1985)
85. القيسي ،أبو عبد الله محمد بن أحمد , أنس الساري والسارب من أقطار المغار ب في منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب ، تحقيق محمد الفاسي ، (الدار البيضاء ،1968).
86. كابوفين ، جورجيو ، طرابلس والبندقية في القرن الثامن عشر، ترجمة عبد السلام مصطفي باش أمام،(طرابلس، 1988).
87. كاكيا ،أنتوني جوزيف ، ليبيا في العهد العثماني الثاني1835-1911م،ترجمة: يوسف حسن العسلي،(بيروت، 1964) .
88. كورو،فرانشيسكو ، ليبيا خلال العهد العثماني الثاني ،تعريب خليفة محمد التليسي ،(طرابلس،1971).
89. كيوان، مأمون ، يهود الشرق الوسط :الخروج الأخير من الغيتو الجديد ,(الأهلية للنشر والتوزيع د. م. ، 1996) .
90. لاروند ، أندرية ، برقة في العصر الهلينستى من العهد الجمهوري حتى ولاية أغسطس، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، ط1، (بنغازي ، 2002) .
91. أبو لقمة ، الهادي أ وسعد خليل القريزي ,الجماهيرية الليبية , دراسة في الجغرافية ,(طرابلس ، 1995)
92. ليون ، جون فرنسيس ، من طرابلس إلى فزان 1818–1820, ترجمة مصطفى جودة ،(طرابلس ,1976).
93. محمد ،عائشة موسى ، التاريخ الاجتماعي لمدينة بنغازي من واقع سجلات المحكمة الشرعية 1911- 1942، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة قاريونس، كلية الآداب، قسم التاريخ، 2003.
94. محمود ، حسن سليمان ، ليبيا بين الماضي والحاضر ,(القاهرة , 1962).
95. محمد ,محمد محمود ، واحة أوجلة وتجارة القوافل خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة قاريونس، كلية الآداب، قسم التاريخ 2005.
96. مصطفى ،أحمد عبد الرحيم ، في أصول التاريخ العثماني ،(القاهرة، ؟؟؟) .
97. مروان ، محمد عمر ، "حملة محمد باشا الصاقزلي على أوجلة وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي"، مجلة البحوث التاريخية السنة 1، العدد 1، (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2001)، ص 168-169.
98. مزيان ، عبد المجيد , النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون ،(الجزائر ،1985).

99. مفتاح ، صالح مصطفي ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، ط2،(بنغازي ،1994) .
100. مهران ، محمد بيومى مهران، المغرب القديم، (الإسكندرية ، 1990) .
101. بن موسى،تيسير، تيسير ابن موسى ، المجتمع العربي الليبي في العثماني ، (طرابلس ،1988) .
102. ميكاكي ، ردولفو ، طرابلس الغرب تحت حكم الأسرة القرمانلية، ترجمة طه فوزي، (القاهرة ،1961) .
103. ناجي ،محمود ، تاريخ طرابلس الغر ب، ترجمة عبد السلام أدهم ، (بنغازي ، 1970).
104. ناجي محمود ومحمد نوري ، طرابلس الغرب، ترجمة أكمل الدين محمد إحسان ،(طرابلس , 1973).
105. نارودشي ، استيطان برقة قديما وحديثا، ترجمة إبراهيم المهدوى، ط1،(سرت ، 1995) ، ص53.
106. نجم ، فرج عبد العزيز، القبيلة والإسلام والدولة، ط1، (القاهرة ، 2005) .
107. نصحي ،إبراهيم , إنشاء قوريني وشقيقاتها , ط1, (بنغازي , 1970) .
108. هاملتون، جيمس ، جولات في شمال أفريقيا، ترجمة المبروك الصويعى، ط1 (طرابلس، د ت) . أحمد محمد القلال، سنوات الحرب والإدارة العسكرية البريطانية في برقة 1943-1949، ط1، (بنغازي ، 2003).
109. الهدار ، خالد محمد ، " تاريخ الكشف الأثري لمدينة توخيرة"، مجلة البحوث التاريخيـــة، السنة 29، العدد1، (طرابلس ، مركز جهاد الليبيين، يناير 1997).
110. هيرودوت، هيردوت، الكتاب الرابع من تاريخ هيردوت الكتاب السكيثى والكتاب الليبي، نقلـه عـن اليونانية محمد المبروك دويب، ط1، (بنغازي ، 2003) .
111. الوافي، محمد عبد الكريم ، يوسف باشا القرمانلي والحملة الفرنسية على مصـر، ط1 (طرابلس،1984).
112. Agriculture in Libya and Plan for Its Development, (Tripoli,1965-1967).
113. Saad Abu -Oaf, "Legal Aspects of Tribal Lands and Settlement in Libya" in , Food and Agriculture Organization of the United Nations(Fao),Report to the Government of Libya on Developments of Tribal Lands and Settlements Project,Rome,1969.
114. Great Britain ,F.O. Report of Justin Alvarez from Benghazi , Years 1890,1898, 1902 .
115. Great Britain Foreign office, Historical Section ,No.127,(London,1920).
116. Department of Water and Soil Eastern Zone Branch, Baydah Area, Water Resource Study phase 1,n Contract2/80.Technical Repot,No.2,Geomorphology and Geology, Hydro. Geo.1992.
117. Braudel,F., Civilization and Capitalism in15th Century ,V.1,Harper &Row Publisher,Premeria Library, 1986.
118. Cachia,Antony J.,Libya under the Second Ottoman Occupation1835-1911,(Tripoli,1945), Libya under the Second Ottoman Occupation1835-1911, (Tripoli,1945).
119. Carve, M.,The Geographic background of Greek and Roman History,(Oxford,1965).
120. Cella, Della,Narrative of Expedition from Tripoli in Barbary to the Western Frontier of Egypt in 1817 by the Bay of Tripoli.
121. Cordell, Dennis. D ., 'Eastern Libya .Wadai and the Sanusiya , A Tariqa and Trade Route', Journal of African History, Vol. 18, NO.1,(Cambridge,1977).
122. Dols,Michael,The General Mortality of the Black Death in the Mamluk Empire,in the Islamic Middle East.
123. Gray,John,The Jewish Inscriptions in Greek and Hebrew at Tocra,Cyrene an Barce,(Manchester, 1952).
124. Goithein , S.D.,Mediterranean Trade in Eleventh Century :Some Facts and Problems in" Studies in the Economic History of Middle East", Oxford ,1978).
125. Hitti , Philip History of the Arabs from the Earliest Times to the Present.(U.S.A).
126. Joffe, E. G. H., " Trade and Migration Between Malta and Barbary State 1835-1911" in M. M. Ghanem S.M. Buruand Keith S. McLachlan, eds.,Planning and Development in modern Libya , (Wisbech, Cambridgeshire,England,1985).
127. Mantran ,"North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", The Cambridge History of Islam, Vol. 1. Edited by p. M. Holt. A.K.S Lambton. and B. Lewis,(Cambridge.1970).
128. Murabet , M.,Facts about Libya ,(Tripoli,1964).
129. Oriebates ,The eastern Libyans ,(London,1914)).
130. Pritchard, E.E. Evans,The Sanusi of Cyrenaica,(Oxford ,1949),p. 34 .
131. Slousch,Nahum,Travels in North Africa,(Philadelphia.the Jewish Publication Society of America,1927) .
132. Wood , E. M. Small,The Jews in Egypt and Cyrenaica during the Ptolemaic and Roman Period in Africa in Classical Antiquity ,(Nigeria,1969).
133. Wright ,L & J. McLeod , First Americans in North Africa,(N.Y.,1945).